إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت (١١)

القرآن يتحدى

المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع


القرآن يتحدى


بسم الله الرحمن الرحیم

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت (١١)



المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة





الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٥٧٠ - ١١ / ١ / ٢٠٠٩م

ISBN
977- 5291 - 95 - X

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد

القرآن يتحدى / محمد عمارة . - القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .

٦٤ ص ؛ ٢٠ سم (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ؛ ١١)

٩٧٧ ٥٢٩١ ٩٥ X

١- القرآن - إعجاز

أ - العنوان ب - السلسلة ٢٢٩ , ٧

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - ت ٢٥١٤٤٠٧٣
جوال ٠١٢/٣٦٧٦٧٩٧ - ٠١٠/٦١٨٦١١٤

مقدمة

منذ اللحظة الأولى لنزول القرآن الكريم - بمكة المكرمة - .. وعلى امتداد سنوات نزوله - بالمدينة المنورة - .. كان الإعلان عن أنه « المُعْجِز - المتحدي » .. و « التحدي - المعجز » .. لا للعرب وحدهم .. ولا للبشر المعاصرين فقط .. بل للإنس والجن قاطبة ، عبر الزمان والمكان .. وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

لقد تحدَّاهم أن يأتوا بمثله .. فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله .. فلما عجزوا تحدَّاهم أن يأتوا بحديث مثله .. فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وأن يستعينوا على ذلك بكل من وما دون الله - سبحانه وتعالى - .. وقَطَعَ قطعًا جازمًا ومتحديًا بعجزهم عن ذلك ، عبر الزمان والمكان ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة : ٢٤] .

نعم ! .. ففي سورة الإسراء - المكية - : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وفي سورة هود - المكية - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : ١٣ - ١٤] .

وفي سورة الطور - المكية - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٣ - ٣٤] .

وفي سورة البقرة - المدنية - : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤] .

• • •

ولقد اجتمع الفصحاء والبلغاء من قريش .. وانتدبوا أحد زعمائهم .. وبلغائهم وقضاتهم .. والملقب « بالعَدْل » - لأنه كان عدل قريش كلها - .. انتدبوا « أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم [٩٥ ق. هـ ٥٣٠ - ٦٢٢ م] ليسمع القرآن .. وليجيب على التحدي .. فذهب إلى رسول الله ﷺ وهو بالمسجد وسمع منه سورة « غافر » .. فما كان من عدل قريش وقاضيها وزعيمها إلا أن شهد - وهو على شركه .. وزندقته - فقال لقومه :

« والله لقد سمعت من محمد كلامًا آنفًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن . والله ما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . ووالله ما هو بمجنون ، فقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخَنْقه ولا تخالجه ولا وسوسته . ووالله ما هو بشاعر ، فقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بشاعر . ووالله ما هو بساحر ، فقد رأينا السُّحّار وسحرهم ، فما هو بنَفْثه ولا عُقد ..

والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإن أصله لمغدق ، وإن فرعه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه .. وما أنتم - [يا معشر قريش] - بقائلين - [فيه] - من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل » !! .

• • •

ولقد استمر التحدي على امتداد التاريخ .. واستمرت الشهادات - شهادات العلماء الخبراء الحكماء البلغاء للقرآن الكريم .. للتحدي المعجز .. والإعجاز المتحدي .. ومن نماذج هذه الشهادات :

• قول الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين [٢٤٥ - ٢٩٨ هـ ٨٥٩ - ٩١١ م] : « القرآن : محكم ومتشابه ، وتنزيل وتأويل ، وخاص وعام ، وحلال وحرام ، وأمثال وعبر ، وأخبار وقصص ، وظاهر وباطن » .

وكل ما ذكرنا يصدّق بعضه بعضًا ، فأوله كآخره ، وظاهره كباطنه ، ليس فيه تناقض .. نأخذ بمحكم القرآن ، ونقر بمتشابهه ، أنه من الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٧] . فلذلك جُعل المحكم إمامًا للمتشابه .. »

وعلى امتداد تاريخ القرآن الكريم ، أبدع العقل المسلم من حوله التأليف في فنون « علوم القرآن » ، إعانة لطالبي تاريخه وأسراره .. وإقامة للحجة على المعاندين .. حتى غدت الشهادات على تحدي القرآن وإعجازه فنًا من فنون التأليف .. التي تحتاج إلى الجمع والتأليف والتصنيف .

• وفي عصرنا الحديث .. كتب الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - وهو من أئمة البلاغة والبيان في عصره - .. كتب ، عن إعجاز القرآن الكريم وتحديه ، فقال :

« لقد جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق إليه الريبة أن النبي ﷺ كان في نشأته أميًا . وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال : إنه أُنزل عليه وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف ، والمحفوظ في الصدور . نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقي الأعصار عند العرب ، وأغزرها مادة في الفصاحة ، وأنه الممتاز بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب .. وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه هو الغَلَب في القول ، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول . وتواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ﷺ ، والتماسهم الوسائل لإبطال دعواه .. ولقد تحداهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب ، أو بعشر سور من

مثله ، وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا ، ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ، ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة . وجاء الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي ، ولجاج القوم في التعدي أصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة ، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العليّ على جميع الأحكام .

أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أميّ أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنيع البشر ؟. وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهي ، والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان النبي الأمي ، صلوات الله عليه .

ولقد ثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمدًا ﷺ رسول الله إلى خلقه ، فيجب التصديق برسالته ، والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدي وسنة متبعة .

وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك ..

إن القرآن كلام سماوي ، تنزل من حضرة الربوبية ، التي لا يكتنه كنهها ، على قلب أكمل الأنبياء . وهو يشتمل على معارف عالية ، ومطالب سامية ، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية .

وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال ، الفائضين من حضرة الكمال ، ما يأخذ بتلابيبه ، ويكاد يحول دون مطلوبه .

ولكن الله تعالى خَفَّفَ علينا الأمر ، بأن أمرنا بالفهم والتعقُّل لكلامه ، لأنه إنما أنزل الكتاب نورًا وهدى ، مبيّنًا للناس شرائعه وأحكامه ، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه .

فداوم على قراءة القرآن ، وتفهم أوامره ونواهيه ، ومواعظه وعبره ، كما كان

يُتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي .. ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه ، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه ..

ولقد خط القرآن للعرب طرقًا للتعبير ، ومَهَّد لهم سبلاً جديدة لصوغ الأساليب ، ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزموه ، ويبعد بهم عن تكلّف كانوا رئموه - [أحبوه وألفوه] - .. ولقد كان البدوي راعي الغنم ، يسمع القرآن فيخر له ساجدًا لم عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور ..

ولقد قال الأصمعي [١٢٢ - ٢١٦ هـ ٧٤٠ - ٨٣١ م] : سمعت بنتا من الأعراب - خماسية أو سداسية - تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله قتلتُ إنسانًا بغير حِلّه

مثل غزال ناعم في دله وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ما أفصحك !! .. فقالت : ويحك ! أيعد هذا فصاحة ، مع قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧] ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين » ! .

* * *

أما تلميذ الأستاذ الإمام .. زعيم الأمة .. وقائد أعظم ثورات الشرق في القرن العشرين **سعد زغلول باشا** [١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م] - الذي انتقد كتاب [الإسلام وأصول الحكم ١٩٦٦ م للشيخ علي عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] سنة ١٩٢٥ م لمافيه من محاولة لعلمنة الإسلام .. وانتقد كتاب [في الشعر الجاهلي] للدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] سنة ١٩٢٦ م .. لما فيه من تطاول على الصدق التاريخي لبعض قصص القرآن .. وكتب ثناء مستطابًا على

نقض العلامة محمد فريد وجدي [١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م] لكتاب [في الشعر الجاهلي] .. فإنه هو الذي تحدث عن الإعجاز المتحدي للقرآن الكريم - في تقديمه لكتاب العلامة مصطفى صادق الرافعي [١٢٩٧ - ١٣٥٦ هـ - ١٨٨٠ - ١٩٣٧] (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) سنة ١٩٢٦ م .. فقال : « **لقد تحدى القرآن أهل البيان ، في عبارات قارعة محرجة ، ولهجة واخزة مرغمة ، أن يأتوا بمثله أو سورة منه ، فما فعلوا ، ولو قدروا ما تأخروا ، لشدة حرصهم على تكذيبه ، ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم ، واتسع له إمكانهم** » . **هذا العجز الوضيع بعد ذلك التحدي الصارخ ، هو أثر تلك القدرة الفائقة ، وهذا السكوت الذليل بعد ذلك الاستفزاز الشامخ ، هو أثر ذلك الكلام العزيز** » ..

* * * *

• **أما الرافعي** وهو من أئمة البلاغة في القرن العشرين .. فهو القائل عن القرآن الكريم : « **إن القرآن أنزل لتكون كل نفس سامية نسخة حية من معانية ، وليكون هو النفس المعنوية الكبرى . فهو كتاب ، ولكنه مع ذلك مجموعة العالم الإنساني** » .

* * * *

وإذا كان أساطين البيان والبلاغة والفصاحة - من مشركي قريش - في القرن السابع الميلادي - قد شهدوا بأن هذا القرآن الكريم لا يمكن أن يكون قول بشر .. شهدوا بذلك وهم على شركهم ووثنيتهم .. فإن القرن العشرين قد حفل بشهادات عدد من خبراء اللاهوت ، الذين تبحروا في الكتب المقدسة لدى الديانات السماوية الثلاث - اليهودية .. والنصرانية .. والإسلام .. حفل بشهادات من هؤلاء اللاهوتيين الخبراء للقرآن الكريم بأنه وحي الله المباشر إلى

محمد ﷺ الذي لم يصبه أي تحريف ولا تغيير ولا تبديل .. وأنه عندما تحدى البشر أن يأتوا بشيء من مثله ما كان لأي من البشر أن يستطيع الاستجابة لهذا التحدي المعجز ، لأنه ليس في استطاعة أي من البشر أن يتحدى آيات الله - القرآن الكريم - .

• ويكفي أن نشير إلى شهادة القس الإنجليكاني **العلامة الإنجليزي «مونتجمري وات»** [١٩٠٩ - ٢٠٠٦ م] . وهو قسيس ابن قسيس ، عمل راعيًا بالعديد من الكنائس الإنجليكانية في لندن وأدينبرة والقدس .. وبعد فقهه لليهودية والنصرانية ، وكتبهما المقدسة ، أمضى أكثر من ثلث قرن في دراسته العربية والإسلام وتوّج هذه الخبرة العلمية بشهادته للقرآن الكريم - من موقعه كقس نصراني - فقال : «**إن القرآن هو وحي الله المباشر إلى محمد .. إنه صادر عن الله ، وبالتالي فهو وحي ، وليس كلام محمد بأي حال من الأحوال ، ولا هو نتاج تفكيره ، وإنما هو كلام الله وحده ، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه ، ومن هنا فإن محمدًا ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولاً ، ثم لكل العرب ، ومن هنا فهو قرآن عربي مبين ، وهناك إشارات إلى أنه مُوَجّه للجنس البشري قاطبة ، وقد تأكّد ذلك عمليًا بانتشار الإسلام في العالم كله ، وقَبِلَهُ بشرٌ من كل الأجناس تقريبًا .. وهو يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته ، لأنه يتناول الإنسانية ..**

إننا نؤيد بصدق محمد وإخلاصه عندما يقول : إن كلمات القرآن ليست نتيجة أي تفكير واع منه .

وعندما تحدّى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التي أُوحيت إليه ، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدي ، لأن السور التي تلاها محمد هي من عند الله ، وما كان لبشر أن يتحدى الله ..» ..

هكذا مثل القرآن الكريم .. ولا يزال .. وسيظل .. « الإعجاز - المتحدّي » و « التحدّي - المُعْجِز » ..

وبذلك شهد الحكماء .. الخبراء .. العلماء .. البلغاء على امتداد العصور ..

وصدق الله العظيم :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] .

د. محمد عمارة

القاهرة في محرم ١٤٣٠هـ
يناير ٢٠٠٩م

مدخل عن إعجاز القرآن وشهادات

عندما نزل الروح الأمين - جبريل عليه السلام - بالقرآن الكريم على قلب الصادق الأمين محمد بن عبد الله ﷺ .. مثل هذا القرآن - لأول مرة في تاريخ معجزات الأنبياء والمرسلين : « المعجزة .. والرسالة » معًا .. ففي الرسالات السابقة على رسالة الرسول الخاتم كانت المعجزات منفصلة عن كتب الرسالات .. فكانت معجزات مادية ، تدهش العقل ، الذي كان في طور الطفولة ، يحتاج إلى الانبهار بالمدهشات .. وعندما بلغت الإنسانية سن الرشد ، جاءت معجزة الرسالة الخاتمة والخالدة معجزة عقلية - هي القرآن - الذي يحتكم إلى العقل ، ويدعو للتفكر والتدبر والنظر ، ويستنفر العقل للتعقّل ، بدلاً من إدهاشه وشلّه عن التفكير ..

وبعد أن كانت المعجزة المادية - في الرسالات السابقة - حجة على مَنْ شاهدها واندهش بها فقط - ومن ثَمَّ فإنها موقوته - جاءت معجزة الرسالة الخالدة في ذات الكتاب الخالد ، الذي تعهد الله بحفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] . ولم يتركه لحفظ الناس - الذين يجوز عليهم الخطأ والنسيان والضلال ..

وإذا كانت سُنّة التدافع بين الحق والباطل ، هي سُنّة إلهية عامة ودائمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

فلقد جاء الإعجاز القرآني متحديًا لكل أصحاب العقائد والفلسفات الخارجة عن العبودية لله الواحد .. في عصر نزوله .. وعلى امتداد الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها .. الأمر الذي أثار – ولابد أن يثير – الافتراءات على هذا القرآن – منذ لحظة نزوله وعلى مر العصور .. إنه الإعجاز الخاتم والخالد لسلسلة النبوات والرسالات .. والتحدي الدائم للخارجين عن حظيرة الإسلام .. ومن ثَمَّ فإن معارضته والافتراء عليه ، ومحاولات تشويهه ، هي الأخرى دائمة على امتداد العصور .

ولذلك ، فإن آيات التحدي قد انتشرت في سور القرآن الكريم :

﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة : ٢]

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۞ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤١ – ٤٢] .

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۞ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج : ٢١ – ٢٢] .

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۞ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۞ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة : ٧٧ – ٨٠] .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٧ - ٣٨] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٣ - ٣٤]

﴿ الم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة : ١ - ٣] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : ١٣ - ١٤]

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣ : ٢٤] .

هكذا تناثرت عشرات آيات التحدي في سور القرآن الكريم ، معلنة استحالة محاكاة هذا الإعجاز ، لأنه تنزيل من حكيم حميد .

• عندما تحدَّى القرآن جميع المكذبين بأنه الوحي المجسد لنبأ السماء العظيم . ودعاهم - إن كانوا صادقين - أن يستجمعوا طاقاتهم وملكاتهم ، ويجمعوا شركاءهم ومعبوداتهم ، ليأتوا بعشر سور من مثل القرآن .. أو بسورة من مثله .. استخدم مصطلح « المثل » .. وذلك لحكمة بالغة لا

يدركها إلا البلغاء، الذين يعرفون أسرار البلاغة التي بلغت الذروة في هذا القرآن الكريم .. ففي التشبيهات والمقارنات هناك عدة مصطلحات، لكل منها معنى محدد في هذه التشبيهات والمقارنات.

هناك مصطلح «النِّدّ» .. وهو يعني المشاركة في الجوهر فقط.

وهناك مصطلح «الشِّبه» .. وهو يعني المشاركة في الكيفية فقط.

وهناك مصطلح «الشَّكل» .. وهو يعني المشاركة في القدر والمساحة فقط.

لكن مصطلح «المثل» - كما يقول الراغب الأصفهاني [٥٠٢ هـ - ١١٠٨ م] - في كتابه (المفردات في غريب القرآن): «عام في جميع ذلك» .. أي معناه المشاركة في الجوهر .. والكيفية .. والكمية .. والقدر .. والمساحة - جميعًا - ..

إن في القرآن سجعًا .. لكن وجود السجع في الكلام لا يجعل هذا الكلام «مثل القرآن .. وإن في القرآن آيات جاءت منظومة مثل نظم الشعر ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. لكن الشعر لا «يماثل» القرآن .. إذ لابدّ «للمثل» من المشاركة في جميع الوجوه .. وليس في وجه واحد من الوجوه .. كذلك تَمَيّزَ القرآن وامتاز وفارق كلَّ ألوان الإبداع البشريّ في الصنعة والإبداع .. إنَّه قرآن عربيّ، لا تخرج كلماته وآياته وسوره عن حروف العربية ومفرداتها .. ومع ذلك، فإن أرباب البلاغة قد اكتشفوا - ولا يزالون يكتشفون - أن الإبداع والتركيب والصنعة في هذا القرآن الكريم قد تَمَيّزتْ وفارقت كل ما اعتاده

البشر الذين استخدموا ذات المفردات ، بما في ذلك صناعة الحديث النبويّ ، الذي صاغه الرسول ﷺ - وهو الذي أوتي جوامع الكلم - .. ولذلك ، فلقد أصاب الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] - لأنه أحد بلغاء العصر - كَبِدَ الحقيقة ، عندما قال : « إن الكلام العربي : شعر .. ونثر .. وقرآن » .. وعلى سبيل المثال ، فإن أسلوب القرآن وصنعته ينفردان - دون كل صناعات الأساليب البشرية - باستخدام كلمة « المطر » في العذاب والأذى والانتقام .. أما في السراء فيستخدم كلمة « الغيث » ! .. ويستخدم مصطلح « التغيير » للسلبي .. وفي الإيجابي يستخدم مصطلح « الإصلاح » ، ! .. و « المرضع » - في القرآن - هي المرأة في فترة الرضاعة .. أما « المرضعة » فهي المرأة في حال الإرضاع ! .. و « الجسم » - في القرآن - يأتي للحي .. أما الميت فهو « جسد » ! .. و « السّنة » تأتي للشمسية .. بينما « العام » يأتي للقمرية ! .. و « القَسَم » يأتي لمطلق اليمين .. بينما « الحَلِف » هو للحنث في اليمين ! .. وهناك فارق بين « المجيء » وبين « الإتيان » - في القرآن الكريم - فالمجيء يكون من مكان أو زمان قريب .. بينما الإتيان يستخدم في حالة المكان أو الزمان البعيد ! .. وكلمة « العباد » تغلب في المؤمنين المطيعين ، بينما كلمة « العبيد » تغلب في الكفار العصاة ! .. ولقد جاءت « السماء » - في القرآن الكريم - مفردًا وجمعًا .. بينما جاءت « الأرض » مفردة فقط ودائمًا ! .. وجاء « البصر » مفردًا وجمعًا ، بينما جاء « السمع » مفردًا فقط ! ..

وجاء « النهار » مفردًا ، وإذا جمع استخدم لفظ « أيام » - لا نُهر - ..
وجاء « الصراط » ، مفردًا ، وإذا أريد الجمع استخدم لفظ « سُبُل » ! .. وجاء
« النور » مفردًا ، لا جمعًا ! .. وجاءت « الظلمات » جمعًا لا مفردًا ! ..
وكان التزام الجمع في « الألباب » و « الأكواب » و « الأصفاد »
و « الأباريق » و « السرابيل » ، و « الأساطير » و « الأرائك » و « العالمين »
ولم يرد أي منها مفردًا .. ففارقت الصنعة في القرآن الكريم كل صناعات
الأساليب البشرية ، بما في ذلك الحديث النبوي الشريف ! .

« في القرآن الكريم من أوجه التناسب ما يعلو به على أية « هندسة »
بشرية في أي أسلوب من الإبداعات الإنسانية .. وعلى سبيل المثال ،
فالحروف المعروفة التي بدأت بها بعض السور القرآنية - مثل
﴿ الٓمٓ ﴾ .. و ﴿ حمٓ ﴾ .. و ﴿ الٓرۚ ﴾ .. إلخ . قد اشتملت على
نصف حروف الأبجدية العربية - أربعة عشر حرفًا - وفي هذه الحروف
الأربعة عشر حرفان منقوطان - هما (ق ، ن) - واثنا عشر حرفًا غير
منقوطة ! .. وفي أحرف الأبجدية الأخرى الأربعة عشر حرفان غير
منقوطين - هما (و ، د) - والاثنى عشر الأخرى الباقية منقوطة ! ..

وفي هذه الحروف - التي بدأت بها بعض السور - نِصْف الحروف
المهموسة في الأبجدية العربية ! .. ونِصْف الحروف المقلقة ! ..
ونِصْف الحروف المهموزة ! .. وفيها من مخارج الحروف النصف من
حروف كل مخرج !! ..

وإذا كان القرآن الكريم قد بدأ بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ -

في سورة الفاتحة .. فإن كل أرباع القرآن الكريم - الأربعة - قد بدأت بـ [الحمد لله] ! .. فالربع الثاني يبدأ - بالأنعام - ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ - والربع الثالث يبدأ بالكهف - ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ - .. والربع الرابع يبدأ بفاطر - ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .. ! ..

وفي هذه القطرة - من البحر - البرهان على أن هذه الهندسة المفارقة لكل ألوان هندسات الأساليب البشرية ، هي إشارة إلى كنوز الإعجاز المودعة في القرآن الكريم - الذي لا تنتهي عجائبه - ..

شهادات

ولأن الصنعة لا يُدرِكُ قَدرَها ومستواها إلا « الصُّنَّاع » .. ولأن العلم لا يُدرِكُ أسرارَهُ إلا العلماء .. رأينا شهادات أهل صناعة البلاغة لإعجاز هذا القرآن .. ولتفرده .. ولمفارقته طاقات البشر والمعتاد والميسور للناس .. .

• فأبو عبد شمس **الوليد بن المغيرة** بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم [٩٥ ق . هـ - ١ هـ/ ٥٣٠ - ٦٢٢ م] - وهو من زعماء قريش .. وزنادقتها .. ومن قضاة العرب في الجاهلية - والمُلَقَّب « بالعَدْل » - لأنه كان عدْل قريش كلها - عندما سَمِعَ رسولَ الله ﷺ - يتلو - وهو في المسجد - سورة « غافر » - أدرك - رغم شركه - أنه أمام صنعة إعجاز مفارقة لقدرات البشر وعاداتهم وإمكاناتهم .. فقال : « والله لقد سمعْتُ من محمدٍ كلامًا آنفًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله ما

هو بكاهن ، فقد رأينا الكُهّان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، ووالله ما هو بمجنون ، فقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخَنْقه ولا تخالجه ولا وسوسته . ووالله ما هو بشاعر ، فقد عرفنا الشعر كله ، رجَزَه وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بشاعر : والله ما هو بساحر ، فقد رأينا السُّحّار وسحرهم ، فما هو بنَفْثه ولا عُقده .. والله إن لِقَوله حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإن أصله لمغدق ، وإن فَرْعه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه .. وما أنتم - [يا معشر قريش] - بقائلين - [فيه] - من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل » !! .

لقد شهد الصانع الماهر - لأنه « عدْل » - رغم شركه - بأن ما سمعه « ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن » أبدًا .. ومن ثَمّ فلابد أن يكون كلام رب الإنس والجن - سبحانه وتعالى رب العالمين ..

• **أما عتبة بن ربيعة بن عبد شمس** - أبو الوليد - [٢ هـ - ٦٢٤ م] - وهو من سادة الشرك في مكة - فلقد شهِد - هو الآخر - رغم شركه - مفارقة القرآن الكريم لطاقات البشر وقدراتهم .. فقال : « لقد سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة .. ووالله ليكونن لهذا الذي سمعت نبأ عظيم » ! .

هكذا وَقفَ الخبراء ، وأساطين البلاغة والفصاحة ، أمام هذا الإعجاز القرآني ، شاهدين بألوهيته .. حتى وإنْ مَنَعَتْهم العصبية الجاهلية وتقليد الآباء من إعلان الإيمان برسالة هذا القرآن الكريم .

• في سنة ١٩٢٦ م كَتبَ الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ

١٨٨٩ - ١٩٧٣] كتابه [الشعر الجاهلي] - وكان الرجل في ذلك التاريخ يمرُ بمرحلة انبهاره بالنموذج الحضاري الغربي .. فسطر في هذا الكتاب ثمانية وعشرين سطراً شَكَّكَ فيها ببعض ما وَرَدَ في القرآن الكريم - من رحلة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - إلى الحجاز ، وإقامتهما قواعد البيت الحرام - ثم حَذَفَ الرجلُ هذه السطور ، وطَوَّرَ كتابه ، وغَيَّرَ عنوانه - إلى [في الأدب الجاهلي] - وتجاوز هذه المرحلة التي كان فيها منبهرًا بمناهج الشكّ الغربية - الشكّ العبثي لا المنهجي - ووَصَلَ إلى الدعوة إلى وجوب أن ينص في الدستور على أن لا يصدر قانون يخالف القرآن الكريم ! ..

لكن طه حسين - حتى في مرحلة جنوحه الفكري - وبسبب من أنه كان واحدًا من أبرز بلغاء العصر ، الذين لم يَلْحَنُوا قطّ في العربية .. ولأنه كان أحد أساطين الإدراك لأسرار التركيب القرآني والبيان العربي .. تَحَدَّثَ عن القرآن الكريم باعتباره إعجازًا للبشر .. ومتميزًا عن صناعات البشر في عالم الأساليب .. فكَتَبَ عن تَفَرُّدِ القرآن وعُلُوِّه على كلّ مستويات الإبداع البشري ، يقول : «لقد قلْتُ في بعض أحاديثي عن نشأة النثر عند العرب : إنَّ القرآن ليس شعرًا ولا نثرًا ، وإنما هو قرآن ، له مذاهبه وأساليبه الخاصة في التعبير والتصوير والأداء .

فيه من قيود الموسيقى ما يخيل إلى أصحاب السذاجة أنه شعر ، وفيه من قيود القافية ما يخيل إليهم أنه سجع ، وفيه من الحرية والانطلاق والترسُّل ما يُخيل إلى بعض أصحاب السذاجة الآخرين أنه نثر .

ومن أجل هذا خُدِعَ المشركون من قريش ، فقالوا : إنه شعر ، وكذبوا في ذلك تكذيبًا شديدًا .. ومن أجل هذا خُدِعَ كذلك بعض المتتبعين لتاريخ النثر ، فظنوا أنه أول النثر العربي ، وتكذيبهم الحقائق الواقعة تكذيبًا شديدًا ، فلو قد حاول بعض الكتاب الثائرين – وقد حاول بعضهم ذلك – أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلا أن يأتوا بما يضحك ويثير السخرية » ! ..

نعم .. كَتَبَ طه حسين ذلك .. وشَهِدَ بهذا منذ أربعينات القرن العشرين .

مسيلمة وأحفاده

وإذا كان نفرٌ من أصحاب أساطين الشرك في الجاهلية ، قد شهدوا للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون من كلام الإنس ولا من كلام الجن .. ومع ذلك مَنَعَتْهُم العصبيةُ لما وجدوا عليه آباءهم من الإيمان بما جاء به القرآن ، ومن التحوّل عن الجاهلية إلى الإسلام .. فإن الجاهلية التي نَزَلَ القرآن على أهلها قد شهدت ردود فِعْلٍ أخرى .. لكنهم جميعًا قد وقفوا أمامه عاجزين عن الإتيان بشيء من مثله .

فالذين قالوا : إنه سحر .. وأن الذي جاء به ساحر .. قد سلموا بأنه فوق ما يستطيعون !! .. وكذلك الذين قالوا : إنه أساطير الأولين .. سلموا بأنهم لا يستطيعون محاكاته ، لأنهم ليسوا هؤلاء الأولين !! .. ومثلهم الذين قالوا : إنما يُعَلِّمُه بَشَرٌ أجنبي ، لا يستطيعون محاكاته والإتيان بمثله ، !! .. جميعًا سلَّموا بعجزهم عن مجاراة القرآن الكريم ، مُعَلِّقِينَ سببَ العجز هذا على

مختلف الأسباب ! .. اللهم إلا واحدًا من هؤلاء ، دَفَعَتْه العصبية لقبيلته – « حنيفة » – ضد مُضَر وقريش ، إلى أن يحاول تقليد القرآن ، فجاءت محاولته نموذجًا خالدًا من نماذج السخرية والهزل والإضحاك .. وذلكم هو مسيلمة الكذاب [١٢ هـ – ٦٣٣ م] الذي قال لأتباعه : إن « رحمانًا » ينزل عليه .. وإن له – هو الآخر كتابًا ، جاء فيه : « إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر .. والفيل وما أدراك ما الفيل ، له خرطوم طويل .. ضفدع بنت ضفدعين ، نِقِّي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين .. والليل الأطخم ، والذئب الأدلم ، والجزع الأزلم ، ما انتهكت أُسيد من محرم .. ألم تر كيف فَعَلَ رَبُّكَ بالحُبلَى ، أخرج منها نسمةً تَسْعى ، من بين صفاق وحشى » !! .

* * * *

ولقد ظلت عبارات مسيلمة الكذاب هذه تثير السخرية ، على امتداد أربعة عشر قرنًا .. حتى جاء أحفاده ليصنعوا شيئًا من مثل ذلك ويضعوه على شبكة « الإنترنت » قائلين : إنه قرآن جديد !! .

• في الموقف الغربي من القرآن ، تنوعت الاتجاهات التي تصدت للقرآن الكريم ..

• فوجدنا تيار العداء الفج والصريح للقرآن الكريم ..

– ومن نماذج هذا التيار « مارتن لوثر » [١٤٨٣ – ١٥٤٦ م] الذي قال عن القرآن الكريم : « أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن ..

ملئ بالأكاذيب والخرافات والفظائع .. وإن إزعاج محمد ، والإضرار بالمسلمين ، يجب أن تكون هي المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرف المسيحيين عليه » !! .

فهو يخاف القرآن .. ويَشتُمه .. ويترجمه على النحو الذي يحقق هذا السباب ! ..

- وفي هذا الاتجاه سار الشاعر الألماني « جوته » [١٧٤٩ - ١٨٣٢ م] .. الذي وَصَفَ القرآن الكريم بأنه « الكتاب الذي يكرر نفسه تكرارات لا تنتهي ، فتثير اشمئزازنا دائمًا كلما شَرَعْنا في قراءته » !!

ولعل في جَهْلِ هذا الشاعر بالعربية ما جعله جاهلاً بأسرار الجمال والجلال المُودَعَة في القرآن .. والتي رآها أهل البلاغة العربية - حتى مع كُفْرِهم - سحرًا يستحيل على المجاراة والمحاكاة والتقليد .

وحتى الرجل ، الذي جعل من رسول الله ﷺ إمام العظماء - « توماس كارليل » [١٧٩٥ - ١٨٨١ م] نراه - لجهله بلغة القرآن وأسرار بلاغته والإبداع الإلهي فيه - يقول : « إن محمدًا شيء .. والقرآن شيء آخر .. فالقرآن هو خليط طويل ومُمِلّ ومشوش .. جاف .. وغليظ .. باختصار ، هو غباء لا يُحتمل » .

« وهناك « **الحداثيون** » من الغربيين والمتغربين - الذين أدركوا عبثية الهجوم الفج والصريح على القرآن الكريم .. وكيف أن هذا يزيد المسلمين استمساكًا به واعتصامًا بحبله .. فذهبوا مذهب التأويل العبثي ، الذي يُفَرِّغ القرآن من حقائق محتواه ، ويحوله إلى رموز لا حقيقة فيها .. وإلى تاريخ لا

صلاحية له في الحاضر والمستقبل .

ومِنْ أحدثِ مخططات هذا المنهج في التعامل مع النص القرآني ، التقرير الذي أَعَدَّتْهُ « مؤسسة راند » الأمريكية ، التي تشير على صانع القرار الأمريكي - سنة ٢٠٠٤ م - والذي نُشِرَ تحت عنوان [خطة أمريكية لإعادة بناء الدين الإسلامي] - وفيه تقسيم لتيارات الفكر في العالم الإسلامي إلى أربع تيارات :

١ - **الأصوليون** : الذين يرفضون قِيَمَ الثقافة الغربية المعاصرة .

٢ - **والتقليديون** : الذين يريدون مجتمعًا محافظًا ، وهم في ريبة من الحداثة والتغيير .

٣ - **والعلمانيون** : الذين يريدون أن يَقْبَلَ العالمُ الإسلامي الفصلَ بين الدين والدولة ! .

٤ - **والحداثيون** : الذين يريدون العالم الإسلامي جزءًا من الحداثة الغربية .. ويريدون تحديثَ الإسلام ليواكب العصر ، ثم تنصح هذه الخطة صانعَ القرار الأمريكي بدعم الحداثيين ، لأنهم « الأكثر إخلاصًا في تبني قِيَم وروح المجتمع الغربي الحديث .. وهم - مع العلمانيين - الأقرب إلى الغرب في ضوء القيم والسياسات .. ومن بين ميادين الدعم الأمريكي المقترح لهؤلاء الحداثيين - فيما يتعلق بالقرآن الكريم - « تشجيع تأويلهم للنص القرآني - الحرفي - الذي نعتبره تاريخًا وأسطورة » .

لقد سَبَقَ لرئيس الوزراء الإنجليزي « غلادستون » [١٨٠٩ - ١٨٩٨م] أن قال : « إننا لن نستطيع هزيمة المسلمين طالما ظلوا متمسكين بهذا

القرآن » ! .

ولذلك ، تعددت وتتعدد مظاهر العداء الغربي – والمتغرب – للقرآن الكريم .. وتتراوح بين الهجوم الفج .. وبين ألوان التأويل العبثي التي تُفرِّغ القرآن من حقائقه الخالدة .. وبين محاولات التشكيك في الحفظ الإلهي لهذا القرآن الكريم .. لأن مقاصد الهيمنة الاستعمارية الغربية هي نهب الشرق ، والسيطرة على مقدراته .. ولأن الإسلام كان ولا يزال هو الدرع والطاقة المُحرِّكة للأمة الإسلامية للجهاد ضد هذه الهيمنة الغربية ، كان عداء مؤسسات الهيمنة الغربية – السياسية والدينية والإعلامية – للإسلام ثابتًا من الثوابت على امتداد تاريخ هذه الهيمنة وهذا الاستعمار .. ولأن القرآن هو ديوان الإسلام وجماع رسالته ، والضابط المحفوظ والحافظ للفكر الإسلامي والمجدد لحيويته وحياته ، كان نصيب القرآن كبيرًا من هذا العداء ! ..

وفي العقود الأولى من القرن العشرين ، عَمَّتْ بلوى احتلالُ الغرب للأغلبية الساحقة من ديار الإسلام ، وزاد تركيز الآلة الفكرية الغربية ضد رابطة الجامعة الإسلامية ، كي لا تتوحد الأمة الإسلامية ، فتنهض لتحرير ديارها .. ومن ثَمَّ تجددت وتصاعدت حملات الاستشراق الغربي ضد القرآن ، لأنه مصدر الجامعة الإسلامية ، وإمام المسلمين في المقاومة والجهاد .

ومن بين الحملات الاستشراقية التي شُنَّتْ على القرآن الكريم – في تلك الحقبة – تلك التي تولَّى قيادتها عدد من المستشرقين اليهود ، الذين أرادوا

التشكيك في وحدة النص القرآني ، والزعم بأن المصحف الذي بين يدي المسلمين - مصحف عثمان - قد خالف في بعض الحروف والآيات والسور المصاحف التي كانت بأيدي بعض الصحابة ، قبل جَمْعِ عثمان الأمة ، على هذا المصحف الواحد .. لكن هذه المحاولة ، التي استنفذت جهود وأعمار عدد من هؤلاء المستشرقين ، قد انهارت على رؤوسهم ، حتى لقد اعترفت دائرة المعارف الإسلامية - التي كتبها هؤلاء المستشرقون - بهذا الفشل والانهيار ..

فتقول عن المصير الذي انتهت إليه جهود المستشرق اليهودي « برجشتراسر » - الذي تَخَصَّصَ وتَبَحَّرَ في « القراءات الشاذة » ومن بعده المستشرق الاسترالي « حفري آرثر » انتهت - بعبارة دائرة المعارف - « إلى أنه في الثلاثينات من القرن العشرين كان المستشرقون قد جمعوا بالفعل هذه الاختلافات وحَلَّلُوها ، وانتهوا إلى أنه لا قيمة لها ؛ فانهارت الثقة فيها .. وهوت محاولة المستشرقين إصدار نسخة أخرى من القرآن غير نسخة عثمان ..

لقد ظَهَرَ أن هذه المحاولة عرجاء .. بل إن المستشرق « فيشير » [١٨٦٥ - ١٩٤٩] انتهى إلى أنَّ معظمَ الاختلافات المنسوبة لصحابة قِبَلَ مصحفِ عثمان ما هي اختلافات موضوعة مكذوبة .. ووَصَلَ إلى هذه الحقيقة - أيضًا - الباحث « بيرتون » في كتابه عن جَمْعِ القرآن - والباحث « ونسبرو » - في كتابه دراسات قرآنية ، فقالوا : إن كل - وليس بعض - الاختلافات المنسوبة إلى مصاحف الصحابة وغيرها

موضوعة .. والحقيقة هي أن محمدًا كان قد جَمَعَ القرآن بالفعل أثناء حياته ، وأن القرآن على عهده كان مصاغًا بشكله النهائي » .

وهكذا سقطت الجهود الهائلة التي استغرقت عقودًا متطاولة من أعمار المستشرقين اليهود ، للطعن في وحدة النص القرآني ، وليقولوا إن ما حدث للنصوص الدينية الأخرى لم يسلم منه القرآن ! . انهارت كل هذه الجهود .. واعترف بانهيارها ذات المستشرقين الذين كتبوا دائرة المعارف الإسلامية – في المادة التي كتبوها عن « القرآن » ..

وغير هذه الجهود الفاشلة التي أضاعت أعمار أصحابها ، ثم انهارت مع هلاك هذه الأعمار .. كانت هناك حملة غربية أخرى حاول أصحابها – المستشرقون – إثبات أن القرآن ليس سوى هرطقات واستعارات من اليهودية والنصرانية ..

وشهد شاهدٌ من أهلها

لكن المستشرق الإنجليزي الحجة « منتجمري وات » الذي بذل من عمره ثلث قرن في دراسة الإسلام ، تَوَّجَ هذه السنوات بكتابه [الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر] وقال فيه عن هذه الحملة : « لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (مودة) تقديم القرآن للقارئ الأوربي باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية ، بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة . ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة . والواقع أن هذه النظرة تُعَدُّ بقية من بقايا الدعاية المسيحية التي سادت فترة الحروب

الصليبية ، عندما كان على أوربا الغربية - التي كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوي دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام .. إن القرآن لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية .. فلقد أَكَّدَ الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقلّ عن اليهودية والمسيحية .. وثمة ما يُؤكِّد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم في حالة نقائه الأولى » .

وهكذا انتهت جهود هذه الحملة الاستشراقية - هي الأخرى - إلى السقوط والزوال ! . في مواجهة الهجمة ، بل الهجمات الغربية على الإسلام ، وبالذات على القرآن الكريم ، تَصَدَّى المستشرق الحجة « منتجمري وات » - الذي دَرَسَ الإسلام على امتداد ثلث قرن ، وأنجز دراساته العليا - الماجستير والدكتوراه - في الفكر والفلسفة الإسلامية - تَصَدَّى لهذه الهجمات الظالمة - وخاصة في كتابه [الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر] - الذي كَتَبه سنة ١٩٦٩ م ..

فكتب عن القرآن الكريم ، يقول :

« إن الوحي الإسلامي لابد من تناوله بجدية .. إن القرآن صادر عن الله ، وبالتالي فهو وحي ، وليس كلام محمد بأي حال من الأحوال ، ولا هو نتاج تفكيره ، وإنما هو كلام الله وحده ، قَصَدَ به مخاطبة محمد ومعاصريه ، ومن هنا فإن محمدًا ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولا ، ثم لكل العرب ، ومن هنا فهو قرآن عربي مبين .

وهناك إشارات في القرآن إلى أنه موجَّه للجنس البشريّ قاطبة ، وقد

تأكَّد ذلك عمليًا بانتشار الإسلام في العالم كله ، وقَبِلَهُ بشرٌ من كل الأجناس تقريبًا .. إنَّ القرآن يَحْظَى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته ، لأنه يتناول القضايا الإنسانية .

إننا نؤمن بصدق محمد وإخلاصه عندما يقول : إن كلمات القرآن ليست نتيجة أي تفكير واعٍ منه .. إن القرآنَ لا ينبغي النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية .. وإن التجربة النبوية مع الوحي يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلي :

١ – محمد يشعر ، وهو في حالة وعي ، أن هناك كلمات بعينها تُلْقَى في روعة ، أو تحضر في قلبه أو عقله الواعي .

٢ – وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبدًا نتيجة أي تفكير واعٍ من جانبه .

٣ – أنه يعتقد أن هذه الكلمات التي أُلقيت في روعه من قِبَلِ « مندوبٍ » أو « مبعوث » خارجي يتحدث إليه كَمَلك .

٤ – أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى .

وعندما تحدَّى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التي أُوحيت إليه ، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدِّي ، لأن السور التي تلاها محمد هي من عند الله ، وما كان لبشر أن يتحدَّي الله ، وليس من شكٍّ في أنه ليس من قبيل الصدفة أيضًا أن كلمة (آية) تعني علامة على القدرة وتعني أيضًا فقرة من الوحي .

وعندما تَمَّتْ كتابة هذا الوحي شكَّل النص القرآني الذي بين أيدينا ..

وفي الحديث عن جَمْعِ القرآن ، نجد أن كلمة (جَمْع) قد استخدمت في آيات قرآنية مهمة : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ – ١٩] .

ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعي لهذه الآيات : أن محمدًا مادام يتبع تلاوة من يتلو عليه (جبريل) فإن الله تَكَفَّلَ بجمع الآيات المتفرقة ، أو التي أُوحي بها في أوقات مختلفة ، ليجعلها في سياق واحد .

وإذا لم يكن محمد هو الذي رَتَّبَ القرآن بناء على وحي نزل عليه ، فمن الصعب أن نتصور أن زيد بن ثابت [١١ ق هـ – ٤٥ هـ/ ٦٠٠ – ٦٦٥ م] أو أي مسلم آخر يقوم بهذا العمل ، ومن هنا فإن كثيرًا من السور قد اتخذت شكلها الذي هي عليه منذ أيام محمد نفسه .

إن القرآن كان يُسَجَّل فور نزوله .. ولقد تبوأ القرآن دائمًا – في حياة المجتمع الإسلامي – مكان المركز ، أو القطب ، أو المحور ، وصَنَعَ نسيج الحياة الإسلامية ، والنظرة العقلية للعالم والكون » .

تلك شهادة المستشرق الإنجليزي الحجة « منتجمري وات » للقرآن ، باعتباره وحيًا إلهيًا مباشرًا وصادقًا إلى رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ .. ولصدق هذا الوحي الإلهي .. وصدق الرسول الذي نزل عليه الوحي .. ولمكانة القرآن الكريم – دائمًا وأبدًا – في المجتمعات الإسلامية .. فهو المركز .. والقطب .. والمحور .. وصانع نسيج الحياة الإسلامية وفلسفة النظرة الإسلامية للعالم والكون .. ولأنه كذلك ، فلقد تَعَرَّضَ لتهجُّم الجهلاء .. ولكنه حظي بإنصاف العلماء ! .

شهادة شيخ الأمناء

للمرحوم الشيخ أمين الخولي [١٣١٣ - ١٣٨٥ هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م] وهو شيخ الأمناء - الذي تتلمذت على يديه أجيال من كبار الأساتذة .. والذي يحظى بالاحترام والتقدير لدى كثير من العلمانيين - لأمين الخولي كتيب صغير [عن القرآن الكريم] - كتبه في الأصل تعليقًا على مادة « القرآن » في دائرة المعارف الإسلامية - التي كتبها المستشرقون - ولقد أعدت نَشْرَ هذا الكتيب ، وقدمت له في سلسلة « في التنوير الإسلامي » .

ولأن بعضًا من أحفاد « مسيلمة الكذاب » - بل وبعضًا من الذين يتمسحون في أمين الخولي - يهرفون بما لا يعرفون حول القرآن الكريم ، فإن من المفيد أن نضع أمام أعينهم - إن كانوا يبصرون - ما كتبه هذا الشيخ الجليل عن القرآن ..

« لقد تحدَّثَ أمين الخولي عن مقاصد الترتيب للقرآن ، وفلسفة هذا الترتيب ، فقال : « إنه ترتيب مُتَفَرِّدٌ ، ينبغي أن يُقَدَّرَ ما فيه من القصد إلى أن يكون - أولاً ، وقبلَ كلِّ شيء ، ومع كل شيء .. كتاب هداية نفسية خلقية اجتماعية ، تتناسب مع عموم الدعوة الإسلامية ، وتوجيهها إلى الإنسانية جمعاء ، في كل زمان ومكان . وتتناسب مع دوام الدعوة الإسلامية ، واستمرارها إلى آخر الدهر ، وعلى مدى الزمن ، مادامت على هذه الأرض حياة ، كما تتناسب كذلك مع خَتْمِ هذه الدعوة لرسالات

السماء إلى الأرض ، واستطاعة الدنيا أن تكتفي بها ، وتلتقي عندها .

فالقرآن يمس دائمًا الأصول الكبرى ، والأسس العامة ، والقواعد الكلية ، في إطار من الشعور الديني المؤمن ، والفضيلة الخلقية المُصْلِحَة لنفوس البشر ، المُهَيِّئَة لهم أن يكونوا - في نشاطهم العملي وجهادهم الحيوي - أناسًا أخيارًا ، أطهارًا ، أبرارًا ، غير متكالبين ولا متناحرين ، ولا متباغضين .

وإذا ما مسَّ القرآن شيئًا من التفصيلات تَطَلَّبها واقع الحياة فلتكون كذلك مثلاً عامة ، يرجع إليها الناس فيما أمرهم به من التبصر والاعتبار ، بمثل قوله : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر : ٢] وبذلك يمضون - على تغير أحوالهم ، وتطور شئونهم ، واختلاف بيئاتهم ، وتنوع مشكلاتهم - وهم دائما أولئك المراقبون لربهم ، المحكّمون » لضمائرهم ، المُقَدِّرون لمسئولياتهم .. يُدَبِّرون من أمورهم المتجددة ما تصلح به حياتهم .. في ظلِّ تلك الغشية من قلوب وجلة ، ونفوس مطمئنة ، لا تنسى نصيبها من الدنيا ، وتذكر مع ذلك اليوم الآخر ، والحساب المرتقب .

ومن هذا الترتيب ، الذي توزعت في جميع أجزائه وآياته مواضع العبرة الهامة ، نجد الهداية المرجوة ، في كل قطعة منه ، وكل بيان ، وكل قصة ، وكل موعظة .. » .

« كذلك كَتَبَ هذا الشيخ الجليل العلامة ، عن تدوين القرآن - لحظة نزوله - وعن جَمْعِه - فقال : « لقد كانت للرسول ﷺ عناية بنشر الكتابة في مجتمعه .. وكان له كَتَبَةُ وحي يكتبون بين يديه القرآن ، ويكتبون رسائله ، وقد بلغ عددهم إلى بضعة وعشرين شخصًا . ورأى

عليه السلام لبعضهم أن يتعلموا من اللغات غير لغتهم العربية .. وكذلك كُتب القرآن أولاً بأول ، مع حِفْظِ ما ينزل منه كذلك أولاً بأول .

إنَّ القرآن حينما تمَّ نزوله مُفرَّقًا ، كان يحفظه نفرٌ من أصحاب الرسول ، منهم من حفظه كله بأجمعه ، ومنهم من حَفِظَ ما تَيسَّرَ منه ، وكان قد كُتب الكتابة التي مَكَّنت منها الظروف .. وهذا ما يمكن أن نسميه الجمع الأول للقرآن ، إذ اجتمع به في صدور حفاظ أقوياء الحافظة .. واجتمع في مكتوبات ، وإن لم تأخذ صورة الصحف أو الكتاب كما نفهمها اليوم ، لتفرق المواد التي كانت عليها الكتابة ، واختلاف أنواعها .. » .

هكذا تَحدَّثَ الشيخ أمين الخولي - شيخ الأمناء - وخريج الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي .. وأستاذ الجامعة .. وعضو مجمع اللغة العربية .. وأحد شيوخ التحقيق للتراث .. والمؤلف المتميز .. وأحد عقول العصر وبلغائه .. هكذا تحدَّثَ عن المقاصد الإلهية لترتيب آيات القرآن الكريم .. وعن التدوين والحفظ لهذا القرآن ، على يدي رسول الله ﷺ وكيف أنجز الرسول وصحابته وعدَ الله سبحانه : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ .

لقد مَضَى المرحوم الشيخ أمين الخولي [١٣١٣ - ١٣٨٥ هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م] في حديثه عن القرآن الكريم ، فعرض لعدد من القضايا .. ولعدد من الشبهات التي يثيرها خصوم هذا القرآن ..

« عَرَضَ للحديث عن الجمع الذي قام به الصحابة - على عهد أبي بكر

الصديق - والذي كان - في الحقيقة - جمعًا للصحائف التي كُتِبَ فيها القرآن على عهد الرسول ﷺ فقال شيخنا : « إن هذا الجمع الذي تَمَّ في عهد أبي بكر كان الجمع الذي يحقق المعنى المادي للجمع والضم - [فكأنه جمع الملازم في كتاب] .. والحال التي تمَّ فيها وبها هذا الجمع تُهَيِّئ من الاطمئنان إلى المجموع ما لا يكاد يتوافر مثله على التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول .. » .

• وبعد هذا القطع - من هذا العالم المحقق - بأن القرآن قد حظي - في التدوين والجمع - بما لم يحظ به نصٌّ من النصوص على امتداد تاريخ البشرية قاطبة .. عَرَضَ لما يثار حولْ هذا التدوين والجمع للقرآن من شبهات .. فقال : « أما الأخبار التي تلقي ظلالاً على هذه الحقائق ، فإننا لا نشعر بحاجة إلى الوقوف عند شيء منها ، لغير سبب واحد يقضي بالانصراف عن ذلك :

فهي أخبار آحاد لا يسهل فحصُ أسانيدها . وهي ، مع ذلك ، عرضة للتأثر بأهواء ذوي الهوى من أصحاب العصبية الدينية . والخصومة الاعتقادية في كل حين - روَّجها في القديم مَنْ روَّجها من هؤلاء ، ويثير الغبار بها أشباه لهم في هذا العصر ، من ذوي الأغراض السياسية والاعتقادية المحترفين ذلك .. وهي ، مع كلٍّ ، لا تمسّ القرآن من بعيد أو قريب لو تمثّل الواقفون عندها الظروف والملابسات التي جُمِعَ فيها القرآن هذا الجمع الثاني زمن أبي بكر ، فحالُ الناس إذ ذاك ، ومدى معرفتهم للقرآن ، وحال مَنْ قام بهذا الجمع ، وقدرته عليه ، وقدر الرقابة

العامة على ما يتمّ من عمل في ذلك ، والطاقة الإنسانية الممكنة في مِثْل هذا الجمع ، وما تَهَيَّأ منها للبشرية كل حين في حِفْظِ مثل تلك النصوص الدينية أو الدنيوية ، وما يتصل بكل ذلك من معان واعتبارات كبرى - تعطي ضمانات لمثل هذا العمل يكون الوقوف بعدها عند مثل الأخبار المتناقلة عن طريقة الجمع ، وأحواله ، مما يبدو عبثًا لا طائل تحته .

وما أرى إلا أن تمثّل حال المسلمين عند هذا الجمع سنة ١١ هـ ، وحال القرآن فيهم ، أولى للمُعْتَقِد والباحث جميعًا من الوقوف عند منثورات أخبار آحاد أكثرها معلقة لا سند لها ، وهي خليقة باضطرابها أن تخفي الصورة الصحيحة المشرقة ، للحياة والناس ، والظروف التي جُمع فيها القرآن جَمْع أبي بكر الثاني ، بعد جَمْع الرسول الأول قبله .. » .

« وبعد تبديد هذه الشبهات - التي هي « عَبَثٌ لا طائلَ تَحْته » - حَقَّقَ الشيخ الخولي قضية جَمْعِ عثمان بن عفان الأمة على مصحف واحد ، وقضية الأحرف السبعة التي نَزَلَ بها القرآن ، فقال : « إن الأحرف السبعة ليست هي القراءات السبع ، وإنما هي لهجات مختلفة في اللغة العربية ، وُجدت في القرآن جملة ، لا أنها كانت سبع لهجات في كلِّ آية وكل موضع من القرآن ، ولقد كانت ضرورة حيوية اقتضاها الواقع اللغوي للعربية . وهذه الضرورة قد ارتفعت الحاجة إليها حين تَغَيَّرَ حال المجتمع الإسلامي ، عندما انضبط الأمر ، وتدربت الألسن ، وكَثُرَ الناس والكُتّاب .. وعندما ارتفعت هذه الحاجة إلى الأحرف المختلفة جَمَعَ عثمان « المصحف الإمام » .. فكان مصحفه حرفًا واحدًا .. لقد غدا الناس -

بعد جيل تغيرت فيه الحياة تغيرًا جوهريًا كبيرًا - لا ضرورة تقضي عليهم باستعمال حروفهم ، لئلا يختلفوا ، فقد صاروا بحيث يستطيعون الاتفاق .. وهذا الذي صَنَعَه عثمان ، إذا ما سَمَّيْناه جَمْعًا ، فإنه لجدير بأن يسمى جَمْع المسلمين ، لا جمع القرآن .. فإن جَمْعَ القرآن قد كان في عهد الرسول - بمعنى ضَمّ أجزائه .. وفي عهد أبي بكر بما حفظ أصلاً رسميًا يكون مرجعًا ، وعَمَلُ عثمان هو تهيئة هذا الأصل الرسمي للتداول العملي على حال تُلَائِمُ الدعوة الإسلامية التي امتدت وتمتدُّ .. » .

هكذا تكلَّم أمين الخولي - شيخ الأمناء - فهل يتأمل ما قاله هؤلاء « المحترفون من ذوي الأغراض السياسية والاعتقادية الذين يتعلَّقون بالعبث الذي لا طائل تحته » ؟! .. أم أن أمراض القلوب قد أعيت حكماء الأطباء ؟ ! .

❖ ❖ ❖ ❖

الشيعة والقرآن

لم يترك الزنادقة بابًا من أبواب الطعن في القرآن الكريم والافتراء عليه إلا واقتحموه ! .. ومن هذه الأبواب ما جاء في بعض كُتُب الإخباريين - أي الذين يُلَمْلِمُونَ الروايات ويُثْبِتُونَها ، دونما نقدٍ أومقارنة أو تصحيح .. ما وَرَدَ في بعض كُتُبِ هؤلاء الإخباريين من الشبه ، من روايات تقول : إن لعلي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - مصحفًا أكبر من هذا المصحف الذي بين يدي المسلمين اليوم .. وأن لفاطمة - بنت النبي عليه الصلاة والسلام - هي الأخرى مصحفًا مخالفًا !! ..

نعم .. لقد اقتحم الزنادقة هذه الأبواب .. وركزوا على أن أحد هؤلاء المؤلفين من الشيعة - الإخباريين - وهو « الميرزا حسين النوري » قد أَلَّفَ كتابًا عنوانه [فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب] !! ..

لكن الزنادقة لا يذكرون أن بعض عقلاء الشيعة الإمامية قد نَقَدُوا وانْقَضُوا وفَنَّدُوا كل الكتابات والروايات التي جاءت في تراث هؤلاء الإخباريين من علمائهم .. وذلك عندما أصدر أحد علماء الشيعة - رسول جعفريان - كتابًا عنوانه [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسُّنَّة] طبع بطهران - سنة ١٤٠٦ هـ سنة ١٩٨٥ م - وقدَّمَ له الناشر - وهو الدولة - معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي - بمقدمة جاء فيها : « إنه

ليس هناك مسلم واعٍ موضوعي يؤمن بهذه الأكذوبة [أكذوبة التحريف] أو يُرتِّبُ أي أثر عليها ، وهذا ما يبدو لنا من استقراء أقوال العلماء واستدلالاتهم القوية على رَدِّ هذه الشبهة . وهذا الكتاب يعدُّ محاولة جيدة لتأكيد هذه الحقيقة ، بالإضافة إلى أنه يدفع الكثير من الشبهات التي حاولت إلصاق القول بالتحريف للقرآن بمذهب أهل البيت ، وهو بريءٌ من هذه التهمة تمامًا ، نعم يوجد في التاريخ أناس غَرَّتْهُم الظواهر وابتلوا ببعض الاستدلالات غير المنطقية فراحوا يُشَكِّكُون في المسألة ، إلا أن ضَعْفَ استدلالهم ومخالفتهم للضرورة الإسلامية القائمة طَوَتْ أفكارهم فلم يَعُدْ لها أي ذِكْر ، وبقي النص القرآني ناصعًا قويًا ، قطعيَ السند ، خالدًا معبرًا عن خلود الإسلام العظيم » .

وبعد هذا التقديم لهذا الكتاب .. عرضت فصول الكتاب – الذي أَلَّفَه « الشيخ رسول جعفريان » – لما ذكره « الميرزا حسين النوري » في كتابه [فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب] .. فرأينا شهادة تلميذ النوري « الشيخ آقابزرك الطهراني » على تراجع أستاذه « النوري » عن هذه الدعوى .. وقوله : « حسبما شافهنا به وسمعنا من لسانه ، فإنه كان يقول : أخطأت في تسمية الكتاب ، وكان الأجدر أن يُسَمَّى بـ [فصل في عدم تحريف الكتاب] لأني أثبت فيه أن كتاب الإسلام – القرآن الشريف – الموجود بين الدفتين ، المنتشر في أقطار العالم ، وحي إلهي ، بجميع سوره وآياته وجُمَله ، لم يطرأ عليه تغيير أو تبديل ولا زيادة ولا نقصان من لدن جَمْعِه حتى اليوم ، ولقد وَصَلَ إلينا المجموع الأول بالتواتر القطعي » .

وأضاف الطهراني - في شهادته على أستاذه - : « هذا ما سمعناه من قول شيخنا نفسه . أما عمله ، فقد رأيناه وهو لا يقيم لما وَرَدَ في مضامين الأخبار وزنًا ، بل يراها آحادًا لا تثبت بها القرآنية ، بل يضرب بخصوصيتها عرض الجدار » . هكذا انهارت أهم حجة من حجج الزنادقة على حدوث التحريف في نصِّ القرآن الكريم .

ولقد عَرَضَ هذا الكتاب - أيضًا - في معرض النقد والنقض للروايات التي جاءت في كُتُب الإخباريين الشيعة عن تحريف القرآن - لما جاء في كتاب [الكافي] للكليني - وهو من أهم مراجع الشيعة في الأحاديث - فقال : « إن الشيعة لا يعتقدون بصحة جميع مروياتهم ، ولذا ذكروا أسانيد الأحاديث لكي ينظر المُدقِّق ويتحقّق من صحّة الحديث أو ضعفه ، وهذا ينسحب على كتاب الكافي وغيره من كُتُب الشيعة .. ونحن لا نقول بصحة كل الروايات التي نقلها الكليني .. ففيه الضعيف والمرسل وما لا يوافق القرآن .. فليس الكافي كالبخاري ومسلم عند أهل السُّنَّة .. وإن أحاديث الكافي - التي بلغت ١٦١٩٩ حديثًا - الصحيح منها ٥٠٧٢ حديثًا - أي أقل من الثلث - والحسن ١٤٤ حديثا ، والمُوثَّق ١١٢٨ حديثا ، والقوي ٣٠٢ حديثا ، والضعيف ٩٤٨٠ حديثا .. » أي ثلثي أحاديث هذا الكتاب .. الذي وردت فيه روايات من تحريف القرآن الكريم .

وهكذا انهار العمود الثاني من الأعمدة التي اعتمد عليها الزنادقة في التشكيك بحفظ القرآن الكريم عن التحريف .

في كتاب [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسُّنَّة] الذي ألَّفَهُ

الشيخ رسول جعفريان - وطبعته الحكومة الإيرانية بطهران سنة ١٤٠٦ هـ سنة ١٩٨٥ م .. والذي جاء فيه النقض والتفنيد للروايات التي جاءت بكتب التراث الشيعي ، والتي زَعَمَ أصحابها ورودَ تحريف بالنص القرآني .. في هذا الكتاب :

١ - تفنيد لوجود ما سُمّي بمصحف علي - كرم الله وجهه - وأنه قد جَمَعَ هذا المصحف في ثلاثة أيام « .. فالقرآن كان قد كُتِبَ في عهد النبي ﷺ » وما جمعه علي في ثلاثة أيام هو جَمْعُ صُحُفِه المكتوبة « وإلا فلا يمكن أن نقول : إنه قد كَتَبَ القرآن في ثلاثة أيام » .

٢ - وفي هذا الكتاب نصٌّ على أن الإمام علي - كرم الله وجهه - قد أيَّدَ جَمْعَ عثمان بن عفان الأمة على هذا المصحف الموحد .. وقال « لو وُلِّيتُ لَفَعَلْتُ مِثلَ الذي فَعَلَ » .. وأنه قد أَحْرَقَ مُصْحَفَه ، معلنًا اجتماع الأمة على المصحف الإمام - مصحف عثمان » .

٣ - أما ما سُمّي بـ [مصحف فاطمة] فإن هذا الكتاب ينفي أن يكون مصحفًا أو قرآنًا .. وربما كان كتابًا فيه بعض ما تَعَلَّمَتْه فاطمة من أبيها .. ونص ما جاء عن هذا « المصحف » - الذي لا وجود له - هو : « لقد وَرَدَ في روايات كثيرة ذِكْرُ مصحف فاطمة ، وصُرِّحَ في بعضها أن في هذا المصحف عِلْمَ ما يكون ، وليس فيه ذِكْرُ حلالٍ ولا حرام . كما صَرَّحَتْ روايات أخرى بأن فيه وصيةَ فاطمة الزهراء - عليها السلام - ..

وعلى هذا يمكن أن تكون فيه بعض المعارف التي تعلمتها من أبيها طيلة حياتها ، وتُصَرِّحُ بعض الروايات أيضًا بأن مصحف فاطمة ليس فيه

قرآن ، ولم يكن مُصْحفًا قرآنيًا » .. فهو - إذن كتاب لا علاقة له بالقرآن من قريب أو بعيد .. بل ولا علاقة له بالحلال والحرام ! ..

٤ـ وفي هذا الكتاب شهادات كبار علماء الشيعة ، التي تنفي وقوع أي تحريف في القرآن الكريم ، والتي تؤكِّد على الحفظ الإلهي لهذا القرآن .

• **فالعلامة الطباطبائي** يقول : « إنه ذكر حي خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله ، مصون من الزيادة عليه بما يبطل كونه ذكرًا ، مصون من النقص كذلك ، مصون من التغيير في صورته وسياقه بحيث تتغير به صفة كونه ذكرًا مبينًا لحقائق معارفه ، فالآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] تدُل على كون كتاب الله محفوظًا من التحريف بجميع أقسامه .. فالقرآن محفوظ بعدد إنزاله إلى الأبد » .

• **والسيد الخوئي** ، يقول في تفسير الآية : « إنها تدلُّ على حِفْظ القرآن من التحريف ، وأن الأيدي الجائرة لن تتمكن من التلاعب فيه » .

• **والفيض الكاشاني** يقول : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان .

• **والشيخ أبو علي الطبرسي** ، يقول في تفسير نفس الآية : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ عن الزيادة والنقصان والتحريف والتغيير .

وعن الحسن : معناه : متكفل بحفظه إلى آخر الدهر على ما هو عليه فتنقله الأمة وتحفظه عصرًا بعد عصر إلى يوم القيامة ، لقيام الحجة به على الجماعة من كل من لزمته دعوة النبي ﷺ .

والسيد المرتضى **علي بن الحسين الموسوي العلوي** ـ المتوفى سنة

٤٣٦ هـ - يقول : « إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار ، والوقائع العظام ، والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدت ، والدواعي توفَّرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حدّ لم يبلغه فيما ذكرناه .. لقد كان القرآن على عهد رسول الله ﷺ مجموعًا مُؤَلَّفًا على ما هو عليه في ذلك الزمان ، حتى عَيَّنَ النبي ﷺ على جماعة من الصحابة حِفْظَهم له ، وكان يعرض على النبي ﷺ عدة ختمات ، وكل ذلك يدلّ بأدنى تأمل على أنه كان مجموعًا مُرَتَّبًا غير مبتور ولا مبثوث .. ومن خالف في ذلك لا يُعْتَدُّ بخلافه ، لأن المخالفين نقلوا أخبارًا ضعيفة ظنوا صحتها ، ولا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته » .

وهكذا توالت - في هذا الكتاب - شهادات علماء أعلام الشيعة ومجتهديهم ، التي تُغْلِقُ الأبواب في وجه الزنادقة الذين يُشَكِّكُونَ في القرآن الكريم .

وإذا جاز للبعض أن يشكك في صدق هذه المراجعات الشيعية لما سبق وقالوه في تحريف القرآن الكريم ، انطلاقًا من عقيدتهم في « التقية » ، التي تجعل الكذب دينًا يتدينون به ! .. فإننا لا نستطيع إلا أن نرحب بهذه المراجعات ، تاركين السرائر والبواطن والضمائر للذي تفرد بعلمها والجزاء عليها - سبحانه وتعالى - ..

كما نقول لعلماء الشيعة - وخاصة الحكماء منهم - : إن هذه المراجعات وإن مثلت خطوة كبرى نرحب بها ، إلا أنها تستوجب

مراجعة ما جاء في كتبهم الأصلية المعتمدة – من مثل [الكافي] للكليني – من روايات نسبوها إلى أئمتهم تتحدث عن تحريف القرآن الكريم .. ذلك أن إضفاءهم العصمة على هؤلاء الأئمة ، الذين نسبوا إليهم – زورا وبهتانا – مقولات تزعم تحريف القرآن الكريم ، سيظل مصدرا لعلامات استفهام حول اتساق الموقف الشيعي من هذا الموضوع ..

إن مراجعة علماء الشيعة المعاصرين لما كتبه أسلافهم الإخباريون حول القرآن الكريم خطوة هامة نرحب بها ..

لكنها تظل منقوصة طالما بقيت « أحاديثهم » التي نسبوها إلى أئمتهم تتحدث عن أن تحريفا قد حدث للقرآن الكريم .. فاتساق الموقف يستوجب مراجعة كل التراث الذي وردت فيه مزاعم التحريف

❊ ❊ ❊

هكذا رأينا كيف كان القرآن الكريم الإعجاز الإلهي ، الذي تَحدَّى البشر – ولا يزال يتحداهم – أن يأتوا بشيء من مثله .

وكيف وَقَفَ كلُّ أساطين البلاغة والبيان والإبداع أمام هذا النص القرآني المعجز ، فخشعت ملكات الإبداع لديهم أمام هذا الوحي الإلهي ، الذي لا طاقة لبشر أن يأتي له بمثال .

لقد استوى في ذلك جميع الخبراء .. والبلغاء .. والمبدعون .. حتى الذين مَنَعَتْهُم العصبيات الدنيوية من الإيمان برسالة القرآن الكريم – في التوحيد .. والنبوة .. والشريعة .. ومنظومة القيم والأخلاق .. واليوم

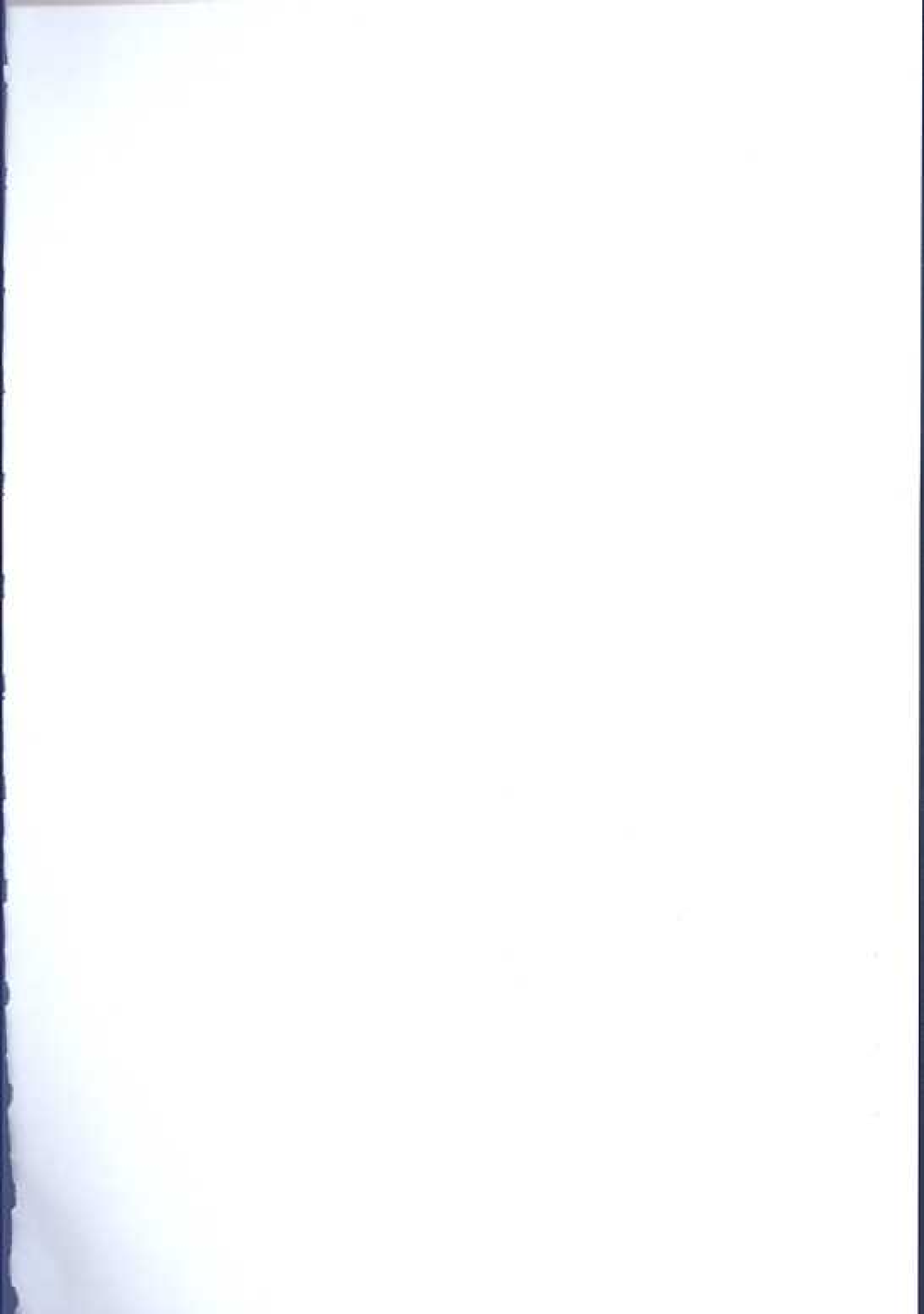
الآخر ، وما فيه من حساب وجزاء .. فأقسموا : « والله ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن .. وإنه يعلو ولا يُعلى عليه » ! ..

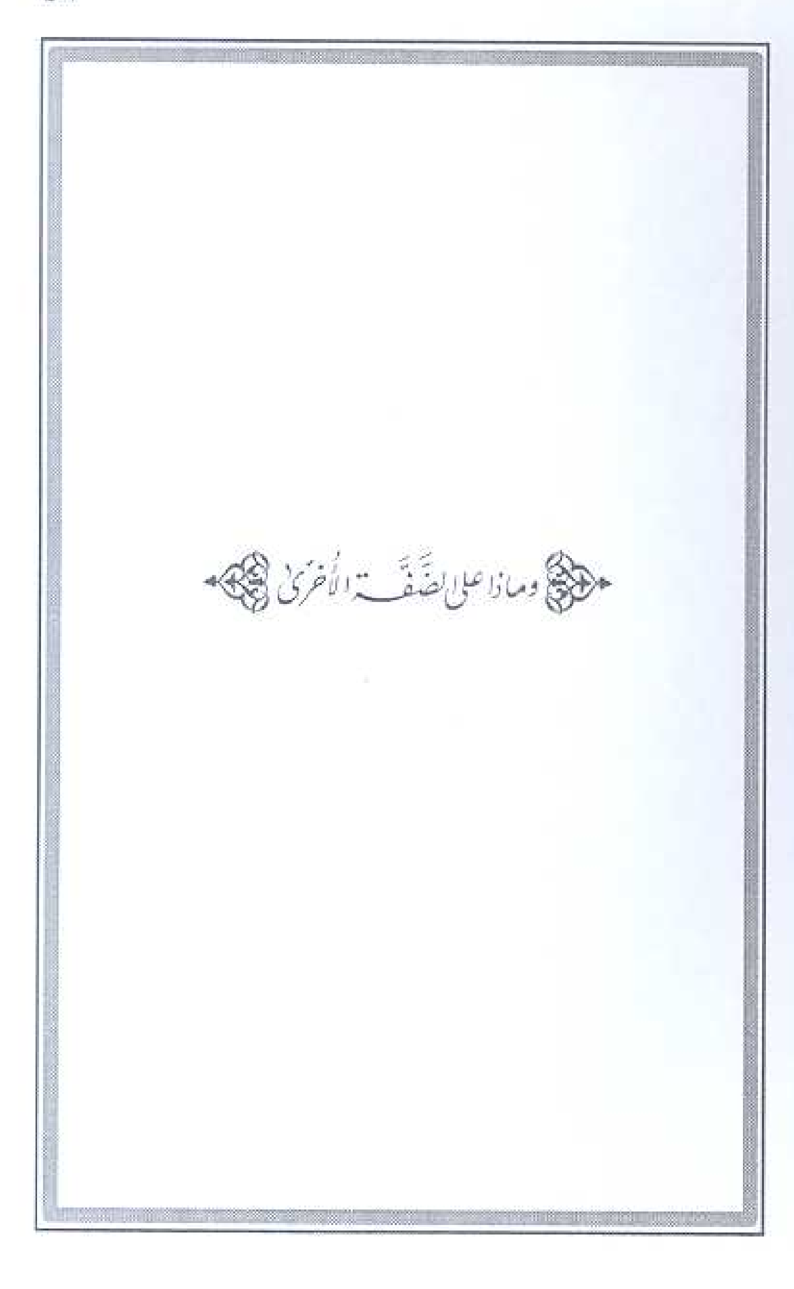
لقد استعلى القرآن الكريم - ولا يزال - على تمرّد المتمردين .. وعلى مقاصد المعادين من المستشرقين .. وعلى الذين أعماهم التعصُّب من أهل الفرق الذين ذهبوا يلفقون الروايات الكاذبة لتأييد التعصُّب والغلوّ والانحراف . وكذلك استعلى القرآن الكريم على الزنادقة ، الذين أرادوا ستر عجزهم القاضح أمام الإعجاز القرآني بلملمة حتى الروايات التي عَدَلَ عنها رواتها ، والآراء التي انتقدها أصحابها ..

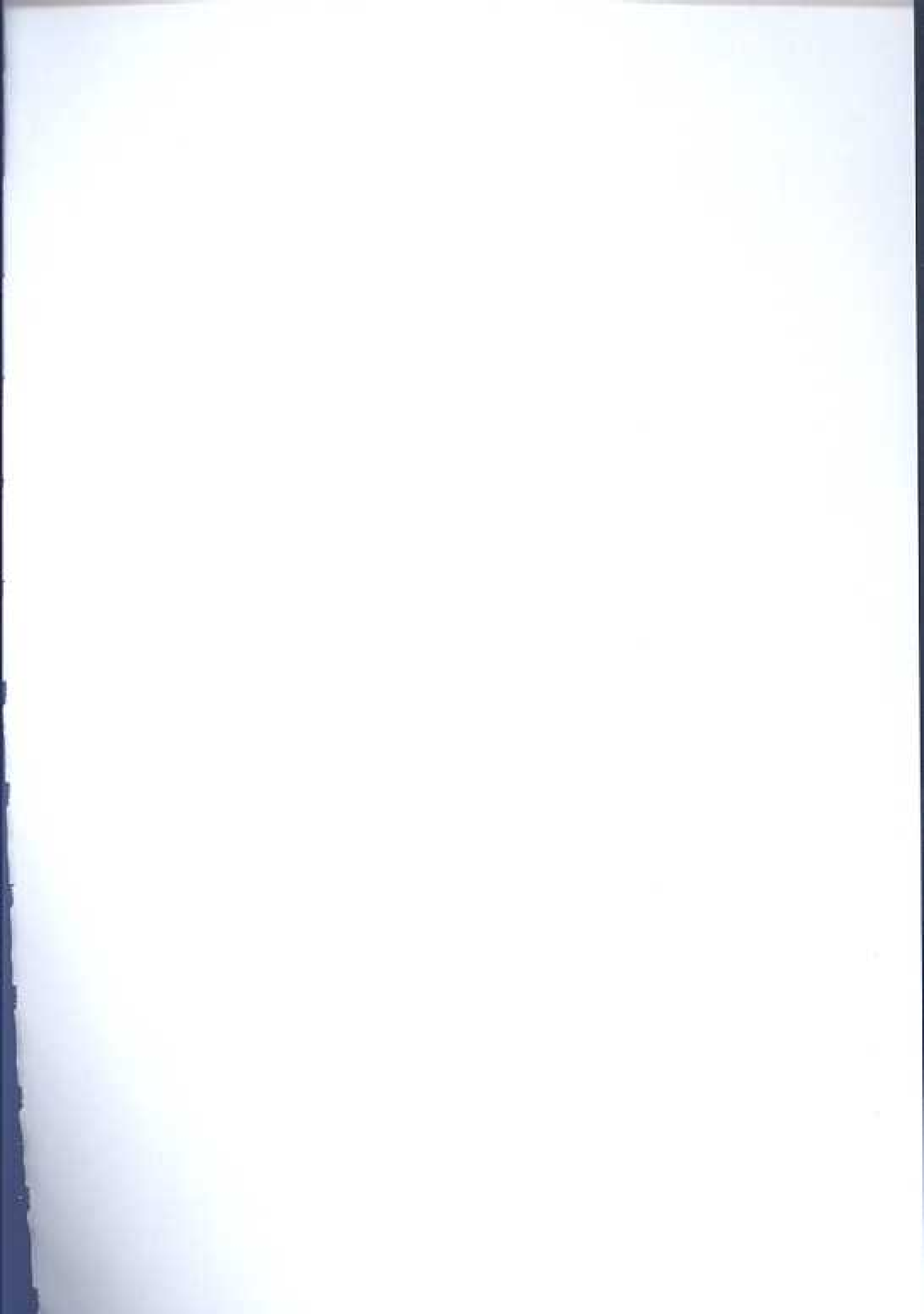
ولقد تكشفت عورات هؤلاء الزنادقة عندما رأيناهم يذهبون فيتبنون روايات الآحاد الواهية والساقطة والمجروحة - بل والموضوعة - ليعارضوا بها النص المعجز .. والمتواتر .. وقطعي الثبوت ! .. ثم يتحدثون - مع ذلك كله - عن العلم .. والمنهج العلمي الذي يزعمون !! .. وصدق الله العظيم : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣ - ٢٤] .

إنه الإعجاز الخاتم - والتحدّي الخالد .. وحجة الله البالغة على الناس إلى يوم الدين .. إنه القرآن الكريم .. ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] .

❖ ❖ ❖ ❖




وماذا على الضفة الأخرى



وإذا كان هذا هو القرآن الكريم : « الإعجاز – المُتَحَدِّي » و « التَّحَدِّي – المُعْجِز » – الذي خشعت أمام إعجازه ملكات الإبداع والمبدعين ، فشهدت له الشهادات التي ضربنا عليها الأمثال .. فإن من الحق والواجب أن يسأل المرء – عند هذا الحد من هذه الدراسة : ماذا على الضفة الأخرى – ضفة الكتب المقدسة لدى الآخرين ؟!

وهنا ننهج ذات النهج ، فنستدعي شهادة الشهود – العلماء الخبراء – من أهل تلك الديانات .. شهادات علماء اليهود ، الخبراء في « علم نقد النصوص » على مدى موثوقية وموضوعية وأصالة أسفار العهد القديم .. وشهادة الخبراء من علماء الدراسات العبرية والتراث اليهودي عن حال تلك الأسفار ، ولياقتها كي تكون كلام الله .. وكذلك شهادة أوثق موسوعات الحضارة المسيحية الغربية – [الموسوعة البريطانية] – عن حال وأصالة وموثوقية أناجيل العهد الجديد .. وذلك ليميز الله الخبيث من الطيب .. و ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

ففي كتاب ضم عددًا كبيرًا من الدراسات العلمية الرصينة ، التي كتبها عدد من علماء اليهود وفلاسفتهم ، الذين تخصصوا في « علم نقد النصوص » .. أعلنت هذه الدراسات أن هذا الكتاب – العهد القديم – قد تدخلت في كتابته وصياغته وإخراجه « أيدي بشرية » على امتداد قرون – فلم يَعُد خالصًا لكلمات الله – بل إن أغلبه لا علاقة له بالوحي الذي نزل – التوراة – على موسى عليه السلام .. فتوراة موسى قد نزلت

عليه بمصر ، وباللغة الهيروغليفية ، قبل غزو بني إسرائيل لأرض كنعان .. وقبل تبلور اللغة العبرية - التي هي في الأصل خليط من لهجات أرض كنعان بأكثر من قرن من الزمان .. ولقد كتبت أسفار العهد القديم - في معظمها - إبان السبي البابلي [٥٩٧ - ٥٣٨ ق م] .. بينما موسى عاش ومات ودفن بمصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ..

لقد جَمَعَ العالم اليهودي « زالمان شازار » هذه الدراسات العلمية التي كتبها نخبة من العلماء والفلاسفة اليهود ، الذين برعوا في « علم نقد النصوص » .. وصدرت هذه الدراسات في سفر كبير ، حمل عنوان [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث] .. في هذا الكتاب نقرأ - عن أسفار العهد القديم - :

« إن هذه الأسفار المقدسة هي من طبقات مختلفة ، وعصور متباينة ، ومُؤلِّفين مختلفين ، حيث تستوعب هذه الأسفار ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من الزمن .. فلا ارتباط بينها ، سواء في أسلوب اللغة أم في طريقة التأليف .

إن القسم الأكبر من توراتنا لم يكتب في الصحراء .. وموسى لم يكتب التوراة كلها .. وأقول التوراة ليست إلا لفائف من أماكن وعصور مختلفة لرجال وحكام وعشائر وأسباط مختلفة .. ففيها ثماني مجموعات تعود إلى عصور مختلفة ، وهي :

١ - لفائف قديمة تعود إلى عصر الصحراء (في سيناء) تم تحريرها من قِبَلِ أحد أبناء أفرايم .

٢ – ولفائف من تعاليم الكهنة ، تمت إضافتها إليها حتى عصر يوشع ابن صادق .

٣ – ولفائف أعداد الأسباط .

٤ – ولفائف باعترافات الأنبياء .

٥ – ومجموعات من روايات بيت داود .

٦ – وأقوال الأنبياء ومجموعاتهم في بابل .

٧ – وأقوال الكهنة والأنبياء العائدين من السبي .

٨ – وتكملات مختارة من عصر الحشمونيين [أي القرن الثامن قبل الميلاد] .

إن سفر التكوين قد أُلّف بعد مئات السنين من استيطان اليهود في فلسطين ، وبعد أن تحصن الأسباط في إرث استيطانهم بزمن طويل ، وإن مؤلّف السفر لم يكن موجودًا على كل حال قبل عصر إشعيا – [أي حوالي ٧٣٤ – ٦٨٠ ق م] .

أما بالنسبة لسفري الخروج والعدد ، فإنهما معالجة لأساطير وأشعار قديمة .

وإن الإصحاحات الثمانية والثمانين الموجودة في التوراة ، بين أنشودة موسى – الموجودة في سفر الخروج – وحتى الإصحاح الأخير من سفر العدد – هي ، في مجموعها ، كتاب أحكام مركب من أجزاء شعرية وتاريخية ، وأحكام وقواعد الكهنة . وطبيعة الأحداث فيها تستلزم أن تتزايد التغييرات والازدواجيات ، والتعديلات ، حيث إن العلاقة بين الأحداث

ضعيفة ، ومن الصعب علينا فهمها . وفي الأسفار كانت أقوال موسى قليلة إلى حد ما . كما أن أقوال داود قليلة في سفر آخر منسوب إليه .. »[١] .

تلك شهادة علماء اليهود ، الذين برعوا في « علم نقد النصوص » ، في أسفار العهد القديم ، التي شاعت فيها أوصاف الازدراء للأنبياء والمرسلين .. تقول هذه الشهادة : إن علاقة هذه الأسفار بموسى واهية جدًا .. وإن هذا الكتاب قد كتب على امتداد ثلاثة آلاف عام .. « في عصور متباينة ، ومن مؤلفين مختلفين » .. ومن ثم عكس نفسيات وظروف مختلفة ومتباينة .. فليس كلمة الله بحال من الأحوال ! ..

وعلى هذا الدَّرب - درب تنزيه كلمات الله ووحيه عن هذا الذي حوته أسفار العهد القديم مما لا يناسب ولا يليق - سار خبراء العبرية والدراسات اليهودية .. فكتب الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين علي - وهو من أبرز العلماء الخبراء في التوراة والتراث العبري - يقول : « إن العبرية - التي هي خليط من الآرامية والكنعانية وكثير من اللغات - سامية وغير سامية - لا يرجع تاريخ ظهورها إلى ما قبل سنة ١١٠٠ ق م .

وإذا علمنا أن موسى ولد في مصر ، ونشأ في مصر ، وتثقف ثقافة مصرية ،

(١) زالمان شازار - محرر - [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث] ج ١ ص ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ . ترجمة : أحمد محمد هريدي . تقديم ومراجعة : د . محمد خليفة حسن - طبعة المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة سنة ٢٠٠٠ م .

وتدرج في مختلف الوظائف العسكرية حتى أصبح - كما يحدّث المؤرخ اليهودي فلافيوس [٣٧ - ١٠٠ م] ضابطًا في الجيش المصري ، ولم يخرج مع من خرجوا إلى سيناء - التي كانت وقتئذ إقليمًا مصريًا - إلا ليواصل حياته المصرية بعيدًا عن استبداد الفرعون ، ولم ير موسى فلسطين ، وتوفي قبل أن تظهر العبرية إلى الوجود بأكثر من قرن ، فلغته كانت ولا شك اللغة المصرية القديمة .. »(١) .

ولقد ضرب الدكتور فؤاد حسنين علي الأمثلة على التناقضات والتغييرات والتحريفات التي أصابت نصوص هذه الأسفار - على امتداد قرون « تأليفها » - كما قال العلماء الخبراء اليهود - فقال :

« لقد درج بعض النساخ على التعليق على النص دون الإشارة ، فضمت تعليقاتهم إلى المتن ، وقد وقَعَ مثل هذا عند ذكر المدينة المصرية [سين - أسوان] إذ علّق الناسخ بعبارة : « حصن مصري » فضمت هذه العبارة إلى المتن [حزقيل . إصحاح ٣٠ - ١٥] - كما تعرضت عبارات وألفاظ كثيرة إلى التحريف ، فخرجت عن معانيها الأصلية ، فاضطرب المعنى واختلّ الأسلوب - [إشعيا . إصحاح ٢٩ - ١٠] - .

وذهب النساخ بعيدًا فاستكملوا النصوص الناقصة ، مثل قانون الملك شموئيل الأول - [شموئيل الأول . إصحاح ٨ : ١٠ - ٢١] .

---

(١) د. فؤاد حسنين علي [التوراة الهيروغليفية] ص ٤ ، ٥ طبعة القاهرة - دار الكاتب العربي - بدون تاريخ .

كما استباح اليهودي المتعصب لكتابه لنفسه الحق في تغيير ما جاء في المتن ، لأنه لا يروقه - [أيوب . إصحاح ١ - ٥] . فالعبارة المنسوبة إلى أيوب : « لأن أيوب قال ربما أخطأ بني وجدّفوا على الله في قلوبهم » . هي - في الواقع - كما يعتقد مارتن لوثر - « أن أبنائي اقترفوا إثمًا وأنكروا الله » . إلا أن الناسخ شق عليه إثبات هذا المعنى .

ومما يؤيد رأي مارتن لوثر ما جاء في العهد القديم - [مزمور ١٠ - ٣] .

والآن نتساءل : ما مدى أصالة النص العبري ؟ هل هو النص الأصلي القديم الذي قد يعتمد عليه ؟

يكفي الباحث أن يقرأ فيه هذه المواضع المكررة - [قابل بين مزمور ١٨ وشموئيل الثاني . إصحاح ٢٢] ليدرك قيمة هذا السؤال .

والذي نعلمه أن هذا النص تعرّض كثيرًا لأعمال الحرق والإبادة بسبب الحروب الداخلية أولاً ، والغزو الأجنبي ثانيًا . .

إن التوراة السامرية - وهي ترجع إلى القرن الرابع ق.م تختلف عن النص الماسوري في أكثر من ستة آلاف موضع ، كما أن النسخة السامرية تتفق مع الترجمة السبعينية في الثلث - والترجمة السبعينية ليست في مجموعها دقيقة ، وبخاصة في إشعيا والمزامير ودانيال ، حيث نجد الترجمة حرة غير دقيقة ، كما أن سفر أرميا ينقص عن النص : العبري نحو السبع ، كما ينقص سفر أيوب نحو الربع .

كما نلاحظ الاضطراب الكثير عند ترجمة بعض الألفاظ العبرية إلى اليونانية ، كما أن هذه الترجمة لم تتم في عصر بعينه ، فالتوراة مثلاً تمت

ترجمتها في القرن الثالث ق . م أما سائر الأسفار الأخرى فقد ترجمت في عصور متأخرة . لذلك فالآراء متضاربة حول الترجمة السبعينية ، ليس فقط حول ترتيبها وتنسيق أسفارها ، بل حول اختلافها أحيانًا عن النص العبري وترتيب العهد القديم العبري ، فضلاً عن أن الترجمة السبعينية تضم أسفارًا ليست شرعية ، ولم ترد في النص العبري ، لذلك استبدلت بترجمة أخرى ، ألا وهي ترجمة (ثيودوثيون Theodotion)[١] .

فهذه الشهادات العلمية - الواقعية .. والتي استندت إلى قواعد علم نقد النصوص - تسقط مصداقية هذه الأسفار التي كرست « ثقافة ازدراء الأنبياء والمرسلين » .. ومن ثم تطعن هذه الثقافة المزيفة والمغشوشة من الأساس . وتدعو الذين قدسوها .. وتربوا عليها ، إلى الخروج من المستنقع الذي سقطوا فيه .

ولقد استند نقاد نصوص هذه الأسفار - كذلك - في نفي مصداقيتها وموثوقيتها - إلى ما حوته من تناقضات تباعد بينها وبين أن تكون كلام الله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

وعن هذه التناقضات يقول العلامة الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين علي : « إنه لا يوجد بالتوراة التي بين أيدينا خبر يُشتم منه أن موسى هو الذي جاء بها أو أُنزلت عليه ، بل على النقيض من هذا يوجد فيها ما يؤيد عكس هذا ، ومن هذه الأدلة مثلاً :

---

(١) المرجع السابق . ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧ .

ما جاء في الآية السادسة من الإصحاح الرابع من سفر التثنية بخصوص وفاة موسى ، فبعيد البعد كله أن يكون هذا الخبر صادرًا عنه فقد ورد في هذه الآية : « لا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا » . .

وفي الآية العاشرة من نفس الإصحاح جاء : « ولم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى ، فكان حليمًا جدًا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » .

فكل هذه الآيات وأمثالها تدلنا على أن المؤلف شخص آخر غير موسى ، كما أن هناك زمنًا بعيدًا بين وفاة موسى وبين تأليف التوراة التي بأيدينا .

ومن الأدلة الأخرى على ذلك ، الاختلافات والتناقضات في النص ، كاستعمال [يهوه] و [إلوهيم] وبعض الألفاظ الأخرى التي نعلم أن معانيها تختلف أحيانا حسب البيئة وحسب الزمن .. والتي لا يمكن أن تكون قد صدرت عن شخص واحد وفي عصر واحد .

فقصة الخلق مثلاً جاءت في سفر التكوين – الإصحاح الأول : ٢٧ – فيها : كان الإنسان آخر الخلق . وعرض لنفس القصة في نفس السفر – الإصحاح الثاني : ٤ – ٢٥ – فكان الإنسان هو الأول ، وبعده جاءت الأشجار ، فحيوانات الحقول ، وطيور السماء .. الأمر الذي يجعل التوراة – كما هي الآن – وليدة عصور ونتاج عقليات متنوعة .

وقد استغلت في سبيل وضعها مصادر عديدة ، بعضها ذُكر كما هو ، وبعضها حُذف منه أو أُضيف إليه .

ومن أدلة تعدد المصادر : الاضطرابات الموجودة في بعض القصص ،

مثل قصة الطوفان : فالآية الثانية عشرة من الإصحاح السابع من سفر التكوين تنص على أنه دام [٤٠] يومًا و [٤٠] ليلة ، بينما نقرأ في الآية الرابعة والعشرين من الإصحاح السابع من نفس السفر أنه دام [١٥٠] يومًا .

ثم إن أقدم المخطوطات الموجودة للتوراة الحالية تفصل بينها وبين النسخة الأصلية التي كُتبت عنها مدة تقرب من الألف عام ، وفي هذه المدة طرأ على الكتابة العبرية شيء كثير من التغيير والتبديل .. »[١] .

✻ ✻ ✻ ✻

كذلك اعترف البابا شنودة - بابا الأرثوذكس - بأن « بعض الأسفار القانونية » التي تعترف بها الكنيسة الأرثوذكسية وتقرها قد حذفت من الطبعة المتداولة الآن من العهد القديم » تلك التي يطبعها ويوزعها البروتستانت !! .. أي اعترف بأن كتابه المقدس منقوص ، قد حذفت منه هذه الأسفار ، المختلف عليها بين كنائس المسيحية !! ..[٢] .

✻ ✻ ✻ ✻

وإذا كانت هذه نماذج من شهادات العلماء الخبراء على ما حدث للتوراة من تغييرات وتبديلات وإضافات وتحريفات ، خرجت بها عن أن

---

(١) د. فؤاد حسنين علي : [التوراة عرض وتحليل] ص ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م .

(٢) صحيفة [وطني] - المسيحية - القاهرة في ٥ - ١٠ - ٢٠٠٦ م .

تكون خالصة لكلمات الله ووحيه وإذا كنا قد سقنا - في البرهنة على ذلك - شهادة العلماء الخبراء اليهود في « علم نقد النصوص » ، لتكون شهادة شاهد من أهلها .. فإن هناك شهادات نصرانية كثيرة على تدني مصداقية وموثوقية الأناجيل التي اعتمدتها الكنائس المسيحية - منذ عصر الدولة الرومانية .. وبقرار منها ! - ..

لقد غاب إنجيل عيسى واختفى ! .. كما غابت توراة موسى واختفت ! .. وفرضت الدولة الرومانية على الكنائس النصرانية أربعة أناجيل ، هي أنواع من « السِّير .. والتواريخ » التي لا تمثل وحي الله وكلماته التي أنزلها على المسيح - عليه السلام - .. والتي كَتَبَهَا كُتَّابٌ غير معصومين - بل ومجهولون ! - وفي حقب بعيدة عن زمن المسيح ! ..

ولقد شهدت [دائرة المعارف البريطانية] - وهي أكثر موسوعات الحضارة الغربية المسيحية موضوعية ودقة واحترامًا - شهدت على « حال » هذه الأناجيل الأربعة .. ومدى مصداقيتها وموثوقيتها ، فقالت - في المادة التي كتبتها عن هذه الأناجيل - عن :

« أ - **إنجيل متَّى** : « إن كون متَّى هو مؤلف هذا الإنجيل أمر مشكوك فيه بجد » [مجلد ٦ ص ٦٩٧] ، ومن المُسلَّم به أن متَّى قد اعتمد في كتابة إنجيله على إنجيل مرقس ، أول الأناجيل تأليفًا ، حيث حوى ٦٠٠ عدد من أعداد إنجيل مرقس البالغة ٦٢١ عددًا ، أي ٩٠ % من محتويات إنجيل مرقس .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : كيف يعتمد متَّى ، وهو حواري

المسيح الذي لازمه منذ بداية دعوته ، على إنجيل كتبه مرقس ، وهو تلميذ الحواري بطرس ، أي من الصف الثاني من أتباع المسيح ؟ ! ..

ب - **إنجيل مرقس** - تقول عنه الموسوعة البريطانية - :

« في أفضل المخطوطات ، فإن الأعداد من ٩ إلى ٢٠ تعتبر عمومًا إضافات متأخرة . والأعداد الأخيرة - ١٦ : ٩ - ٢٠ غير موجودة في بعض المخطوطات ، ويوجد عوضًا عنها مقاطع أقصر في مخطوطات أخرى . وهناك خلاف حول تأليف مرقس لهذا الجزء » - [المجلد الثاني ص ٩٥١ ، ٩٥٣] .

ج - **إنجيل لوقا** : تقول عنه الموسوعة البريطانية : « إن مؤلف هذا الإنجيل يظل مجهولاً » - [المجلد الثاني . ص ٩٥٤] -

د - **إنجيل يوحنا** : هو الإنجيل الوحيد الذي نص بكل صراحة على ألوهية عيسى ، حيث نقل عن عيسى أنه قال : « أنا والأب واحد » - يوحنا ١٠ : ٣٠ - « الذي رآني فقد رأى الأب » - يوحنا ١٤ : ٩ - « أنا في الأب والأب فيّ » - يوحنا ١٤ : ١٠ .

ويتعارض هذا الإنجيل مع الأناجيل الأخرى في أمور هامة جدًا وحاسمة ، فهو يذكر أن المسيح صلب يوم ١٤ نيسان - [إبريل] - بينما يفهم من بقية الأناجيل أن الصلب كان يوم ١٥ نيسان . ولا يذكر يوحنا في إنجيله تفاصيل رواية القربان المقدس أو العشاء الأخير ، التي أصبحت فيما بعد شعيرة من شعائر المسيحية . ولا يذكر أن المسيح تعمّد بواسطة يوحنا المعمدان . وفي حين يفهم من إنجيل يوحنا ، أن

رسالة المسيح استغرقت ثلاثة أعوام ، فإنه يفهم من الأناجيل الأخرى أنها استغرقت عامًا واحدًا .

ويوحنا هو الوحيد الذي ذَكَرَ أن عيسى أخبر تلاميذه قبل صَلْبِه أنه سيرسل « الفارقليط » .. وهذه الاختلافات الهامة – وغيرها كثير – جعلت الموسوعة البريطانية تورد قول الأسقف « بابياس » – المتوفى سنة ١٣٠ م – عن وجود أكثر من يوحنا – يوحنا بن زبدى الحواري – ويوحنا آخر هو الكاهن في أفسيس .

وفي داخل الإنجيل يفهم أنه كُتِبَ بواسطة حواري محبوب مجهول الاسم .

وبما أن الشواهد الداخلية والخارجية مشكوك فيها ، فإن الفرضية المطروحة لهذا العمل هي :

أن إنجيل يوحنا ورسائله حررت في مكان ما في الشرق ، ربما في أفسس ، كإنتاج لمدرسة أو دائرة متأثرة بيوحنا في نهاية القرن الأول الميلادي » – [المجلد الثاني ص ٩٥٥] .

كما أن تاريخ كتابة هذه الأناجيل متأخر عن عصر المسيح – عليه السلام – وتاريخ رفعه .

ولذلك فهي تتحدث عن أحداث سابقة على تاريخ كتابتها .. ومن ثم فهي فاقدة لشروط الشهادة على هذه الأحداث .

فأقدم هذه الأناجيل – كما تذكر ذلك [الموسوعة البريطانية] – المجلد الثاني ص ٩٥٣ – ٩٥٥ . وهو إنجيل مرقس . كتب ما بين سنة ٦٥ و سنة

٧٠ م - أي بعد ثلاثين عامًا من رَفْع المسيح - عليه السلام - ..

وإنجيل مَتَّى كُتِبَ ما بين سنة ٧٠ م و سنة ٨٠ م .. وإنجيل لوقا كُتِبَ سنة ٨٠ م .. أما إنجيل يوحنا فكتب في نهاية القرن الميلادي الأول .

هذا إذا سلمنا بأن كُتَّابها هم الذين نسبت إليهم كتابتها ! .. مع الأخذ في الاعتبار أن مرقس ولوقا لم يشهدا أحداث القصة التي كتباها .. وإنما كتبا ما سمعاه شفهيًا من قصص تلك الأحداث ، نقلاً عن الجيل السابق عليهما ! » .

وكما يقول الأسقف « بابياس » - المتوفى سنة ١٣٠ م - أي المعاصر لكتبة هذه الأناجيل - :

« إن مرقس الذي كان ترجمانًا لبطرس ، قد كتب القدر الكافي من الدقة التي سمحت بها ذاكرته ما قيل عن أعمال يسوع وأقواله ، ولكن دون مراعاة للنظام ، لأن مرقس لم يكن قد سمع يسوع ، ولا كان تابعًا شخصيًا له ، لكنه في مرحلة متأخرة .. قد تَبِعَ بطرس »(١) .

وفي هذا النص الخطير للأسقف « بابياس » تصريح بأن مرقس قد كتب « ما سمحت ذاكرته .. ودون مراعاة للنظام » ..

الأمر الذي ينفي نفيًا قاطعًا عن هذه النصوص النصرانية صفة الوحي الإلهي المعبر عن كلمات الله « فهي « ذكريات بشرية .. تفتقر للنظام ! ..

---

(١) د. أحمد عبد الوهاب [المسيح في مصادر العقائد المسيحية] ص ٥١ - مكتبة وهبة - القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

ولقد قال ، الأب كانينجسر R.P. KANENGESSER - الأستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس : « يجب الأخذ بحرفية الأناجيل .. فهي كتابات ظرفية خصامية ، حرر مؤلفوها تراث جماعتهم المسيحية » ..

كما كتبَ مؤلفو كتاب [الترجمة المسكونية للعهد الجديد] - وهم أكثر من مائة متخصص من الكاثوليك والبروتستانت - فقالوا : « لقد جمع المبشرون وحرروا ، كل حسب وجهة نظره الخاصة ، ما أعطاهم إياه التراث الشفهي » . كما قال العلامة الفرنسي الدكتور موريس بوكاي : « إننا لا نملك أي شهادة لشاهد عيان لحياة المسيح ، وهذا خلافًا لما يتصوره كثير من المسيحيين »[(١)] .

وكما تقول [دائرة المعارف البريطانية] : « فإن جميع النسخ الأصلية للعهد الجديد ، التي كتبت بأيدي مؤلفيها الأصليين ، قد اختفت . وأن هناك فاصلاً زمنيًا لا يقل عن مائتين أو ثلثمائة سنة بين أحداث العهد الجديد وتاريخ كتابة مخطوطاته الموجودة حاليًا » [المجلد الثاني ص ٩٤١] ..

وعلاوة على ذلك .. فإن هناك أكثر من مائة وخمسين ألفًا [١٥٠,٠٠٠] من مواضع الاختلاف بين المخطوطات التي طبعت منها الأناجيل المتداولة الآن ! .. وهذه الاختلافات ليست بين مخطوطات الأناجيل المختلفة فقط ، بل وفي مخطوطات الإنجيل الواحد .. وبنص عبارة [الموسوعة البريطانية] ـ المجلد الثاني ص ٩٤١ ـ : « فإن جميع نسخ

(١) موريس بوكاي [دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة] ص ٧٨ ، ١١ طبعة دار المعارف - سنة ١٩٧٧ م .

الكتاب المقدس قبل عصر الطباعة تظهر اختلافات في النصوص ... وإن مقتبسات آباء الكنيسة من كتب العهد الجديد ، والتي تغطيه تقريبًا ، تظهر أكثر من مائة وخمسين ألفا من الاختلافات بين النصوص »(١) .

❊ ❊ ❊ ❊

تلك شهادات العلماء الخبراء بأناجيل العهد الجديد .. سقنا طرفًا منها - بعد شهادات العلماء الخبراء بأسفار العهد القديم .. لبيان مكانة هذه النصوص ، التي كتبها بَشَرٌ بَدَّلوا وغَيَّروا وحَرَّفُوا كلمات الله .

وبذلك يتميز ويمتاز القرآن الكريم - « الإعجاز - المُتَحَدِّي » و « التَّحَدِّي - المُعجِز » .. والذي خشعت له وشهدت ملكات الإبداع بأنه وحي الله المباشر الذي لم يُصِبْه أي تحريف أو تغيير أو تبديل .. يتميز ويمتاز عن الكتب التي تدخلت في كتابتها أيدي البشر .. ثم زعموا أنها من عند الله .. يتميز الكتاب [الذي لا ريب فيه] عن الكتاب الذي قال - الله في أهله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة : ٧٩] .

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) انظر في ذلك - أيضا - : محمد السعدي [حول موثوقية الأناجيل والتوراة] ص ١٥ - ٣٧ طبعة طرابلس ليبيا سنة ١٩٨٦ م .

المحتويات





هذا الكتاب

كتابٌ تحدَّى الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله – ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا .. وشهد له الخبراء – من غير المؤمنين – أنه ليس كلام بشر .. فقال قاضي قريش « الوليد بن المغيرة » : « ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن .. وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه » . أما القس الإنجليزي « مونتجمري وات » – الخبير في الكتب المقدّسة – فلقد قال : « إنّ القرآن هو وحي الله المباشر إلى محمد .. لم يصبه أي تحريف .. عندما تحدى محمد أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله ، كان طبيعيا أن يعجزوا عن مواجهة التحدي ، لأن هذا القرآن من عند الله ، وما كان لبشر أن يتحدى الله » ...

هذا هو القرآن الكريم : « الإعجاز ـ المتحدي » .. الذي شهد له الخبراء المنصفون ، حتى من غير المؤمنين .

د. محمد عمارة

